السنة الثامنة (جمادى الثانى سنة ١٣٦٠ هـ - يوليه سنة ١٩٤١ م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

م (ج ع هـ ١٩٣٤)

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق
السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إنّ باحثًا مدقِّقًا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم»

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نقدم لقراء العربية العدد الأول من السنة الثامنة من صحيفة دار العلوم شاكرين لله عظيم توفيقه وجليل آلائه أن سدد خطانا وأولانا العون الذى نستمد منه قوة تحفز من همتنا وتزيد من نشاطنا فى إخراج هذه الصحيفة التى هى سجل حافل بمختلف البحوث فى ميدان الثقافة الأدبية واللغويةوالتعليمية.

وقد لقيت جهود أبناء دار العلوم ـ بحمد الله ـ تقديرا وتشجيعا من رجال العلم والأدب ومن الهيئات المختلفة فى مصر ، وفى الأقطار الشرقية وفى أنحاء العالم العربى،فكان هذا من أقوى الأسباب فى مضاعفة الهمة والحرص على إخراج الصحيفة فى حجم لايختلف كثيرا عما ألف القراء فى أعدادهاالسابقة، على مافى الأزمات الحاضرة التى غشيت العالم من عوامل تحكمت فى الطباعة والمطبوعات: من كثرة النفقات، وقلة الورق، وارتفاع ثمنه إلى حد كبير .

وإنا لنشكر لأبناء دار العلوم عنايتهم بإمداد صحيفتهم بمقالاتهم . ويقيننا أنهم سيوالون تغذيتها بالجديد الطريف مما ينتجون وما يبتكرون ومايبذلون فى إعداده الوقت الذى ينتزعونه من راحتهم وفى ثنايا عملهم فى التدريس، والإعداد،والإرشاد .

وإنا حين نشير إلى الأفذاد من أبناء دار العلوم وأعلامها ننوه ، والأسى يملأ القلوب ، بفضل راحل كريم من خير من أنجبتهم هذه الدار ، وهو المرحوم (الشيخ عبد الوهاب النجار) فقد اختاره الله لجواره بعد حياة من أروع المثل العليا فى غزارة المادة ومتابعة البحث فى شتى نواحى الثقافة العربية فى التاريخ واللغة والأدب والشريعة الإسلامية ، هذا إلى الخلق النبيل ، والشيم العالية ، والنفس الكريمة التى يشع منها الإخلاص ، وصفاء الطوية والإيمان القوى .

وكانت له رحمه الله آثار جليلة فى المعاهد العلمية بمصر ، ومواقف مشهودة فى ميادين الإصلاح ، وجولات موفقة فى البحث والتحقيق العلمى والتاريخى ، وجهود محمودة تجعله من أعلام نهضتنا العلمية الحاضرة .

وإن توفية الراحل الكريم حقه ، والإبانة عن مآثره تحتاج إلى بحوث مستفيضة ليس محلها هذه الافتتاحية الموجزة ، فنترك ذلك للأعداد القادمة من الصحيفة إن شاء الله . ونرجو للفقيد من الله رحمته ومثوبته على ماقدم للعلم من خير ، وماجاهد فى الله حق الجهاد .

وستظل هذه الصحيفة - إن شاء الله - كما عهدوا خير مرآة لجهودهم العلمية وأصدق دليل على مقدرتهم وعظيم استعدادهم وجهادهم فى النهوض باللغة العربية . ورجاؤنا فى النابهين من شبان دار العلوم أن تكون لهم أسوة حسنة فى السابقين من إخوانهم وأساتذتهم ممن عظم شأنهم وعمت مآثرهم وذاع فضلهم فى ميدان العلم والأدب .

***

مسلم بن الوليـــــد

حياته وشـــعره

لحضرة الأستاذ الجليل محمد هاشم عطية

المدرس بدار العـــلوم

نريد من حديثنا هنا عن مسلم بن الوليد أن نصل منه رحما مجفوة يتجاوزها الباحثون من أهل الأدب مسرعين إلى بشار وأبى نواس، وإلى أبى تمام والبحترى وغيرهم من طبقة مسلم وتلاميذه ، وقلما عنى أحد منهم بالكشف عن هذا الشاعر ولا بالبحث فى شعره أو الاختيار له،وهو لا يقل عن أولئك الفحول من شعراء زمانه بل يعده بعض أهل العلم متقدما على كثير منهم . وسنحاول أن نبر هذه الجوانب المهجورة من أدبنا لنجعل من ذلك سلفا محموداً لمن يريد مشاركتنا فى التنبيه إلى تلك الآثار العافية بين جوانح الزمن فى عصر يكاد يزيدها إمعانا فى العفاء على كثرة مايرى فيه من بوادر الارتقاء والتقدم ، وانتشار الميل إلى التجديد فى نواح شتى من العلم والأدب والفن والفكر . وسنلم فى إيجاز بنشأة مسلم وعصره تمهيدا لما سنذكر من أدبه وما سنجلوه مما ينسب إليه من بديعه وتصنيعه .

والمعلوم أنه نشأ بالكوفة، وكانت لاتزال مصراً من أمصار العرب، ومنتدى للشعر والأدب، وإن كانت دمشق عاصمة الأمويين قد نازعتها منذ حين هذه المزايا العالية التى انتهت بعد قليل إلى مجد بغداد فى عظمتها الذهبية إبان ازدهار الملك والدولة فى الخلافة العباسية . والمؤرخون لا يذكرون شيئا

عن مولده كما يصنعون بأكثر الشخصيات الكبرى فى تاريخنا العربى . ويرجح ناشر ديوانه وشارحه العلامة المستشرق الهولندى « دى جوجى » المتوفى سنة ١٩٠٩م من طريق الاستنتاج ، أنه ولد بين سنتى ١٣٠ و ١٤٠ هجرية ؛ لأنه حين استقبل فى بلاط الرشيد « وكان كما تقول هذه الرواية » قد خرج من الشباب ونزقه ، ولم يكن فى عداد من يضطرب حياء ، وكان له فهم وتجربة ، وتمييز ومعرفة ، استنشده الخليفة قصيدة له كان قد حفظها فى صباه وهى التى يقول فى مطلعها :

أديرا علىَّ الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذَحْلى

وسماه يومئذ « صريع الغوانى » بقوله فيها :

هل العيش إلا أن أروح مع الصِّبا وأغدو صريع الراح والأعين النُّجْل

فانبرى ينشد والرشيد يتطاول إليه ويستحسن مايقول من وصف شراب ولهو ودماثة وغزل . وإذا علمنا أن الرشيد ولى الخلافة ١٧٠ من الهجرة وعمره اثنتان وعشرون سنة، وكان على غالب الظن حفظ هذه القصيدة وهو فى العاشرة من عمره، كان ذلك مصانعا لجامع الديوان على صحة استنتاجه فى مولد مسلم؛ إذ يكون حينئذ قد ناهز الثلاثين من عمره على أقل تقدير . ومهما دار بنا وبه الأمر فلا شك أنه نشأ بالكوفة فى بيئة فقيرة ومن أب نساج . ولم يعرف شىء عن تربيته الأولى . ولا عن الذين أخذ عنهم من العلماء أو الأساتذة. وكل ماهنالك أنه تلقى ثقافته من تلك الحياة الزاخرة حوله فى الأمصار العربية بين الكوفة وبغداد حين أخذ الفكر العربى يمتزج بعقليات الأمم الأجنبية بالترجمة والنقل للعلوم والفنون من السريان والفرس واليونان، وحين بدأت المدارس الإسلامية تشعر بدبيب الخواطر الحرة فى النقد والأدب وغدت النزعات الفلسفية تأخذ مكانها بين النحل والمذاهب المتعددة . وانتهى النضال بتلك المبادىء المتطرفة إلى ظهور الإلحاد والزندقة والميل إلى إفشاء المجون والعبث.

والتظرف بالمفارقة للمتقرر المألوف من أصول الأديان والمعتقدات. واتجهت الأنظار إلى ماصار للدولة العربية من ضخامة السلطان وعظم الثروة، وزهت دور المياسير من التجار وأعيان الحواضر بالقيان والجوارى المجلوبة من بلاد الفرس والروم، وازداد كلف الملوك والأمراء بالمتمهرات منهن فى صناعة الغناء ورواية الشعر وحسن المطارحة للحديث والسمر. ومال الناس فى الجملة إلى حياة الخلاعة والمجون واللهو، وأقبلوا على عهد من الرخاء والخفض نهل من مشارعه العذبة شعراء هذا العصر الذين استخفتهم غضارة الدنيا إلى التهالك على الشهوات فى المجالس والأسمار بما لم يعهد له مثيل فى أمة من أمم التاريخ.

وفى وسط هذه الحياة الخليعة المترفة وبين تلك المظاهر الجديدة من حضارة الدولة عاش مسلم كما عاش أبو نواس، وأبو العتاهية، والعباس بن الأحنف، والحسين الخليع، ودعبل بن على وابن عمه أبو الشيص وغيرهم من نظراء مسلم وأصحابه. ولاتجد للمؤرخين أيضا كلاما فاصلا فى الحديث عن أصله ونسبه. فابن قتيبة يعده عربيا ويجعل نسبه فى الأنصار إلى رهط مالك ورزين من أسلم من الخزرج معتمداً فى ذلك على قوله: —

تقسمنى من مالك آل مالك ومن أسلم الأثرين آل رزين

وصاحب الأغانى يقتصر فى التعريف به على أنه مسلم بن الوليد وأبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبى أمامة أسعد ابن زرارة الخزرجى. والحكم ابن قنبر المازنى مناقضه ومهاجيه والمؤلب عليه فيما رمى به من هجاء قريش والافتخار بالأنصار مما كاد يريق دمه عند الرشيد مع أنس بن أبى شيخ يقول له: —

يسامى قريشا مسلم وهم هم بمولى يمانى وبيت مهدم

وما مسلم من هؤلاء ولا الألى ولكنه من نسل علج مكلم

مما يرجح عندنا أنه فارسى الأصل ولا يقدح فى ذلك مديحه للأنصار لأنه مما يمليه حقهم عليه من الولاء. ولأن معظم الكتب التى ورد فيها ذكره لم تتعرض فى ترجمته لأكثر من ذكر أبيه الوليد. والاقتصار على ذلك فى التعريف بشاعر يعد زعيما لنهضة جديدة فى الأدب وأستاذا للمدرسة البديعية الأولى يزيدنا اقتناعا بما وافقنا عليه من الرأى فى أصله الفارسى. ونحن مطمئنون إلى ماحمله على الزهد فى أن يجعل من نفسه داعيا شعوبيا يذيع مفاخر الفرس، أو شيعة علوية يتعصب للعلويين من أبناء فاطمة، أو يظهر على أى حال بما يجعل ميله السياسى ذريعة إلى سفك دمه أو حرمانه من الغرض الذى جعله مناط أمله ومدار مناه من الحياة، وهو كما يظهر من تصفح سيرته ليس إلا ذلك المتاع بلعب الشباب وسكرة الصبا وقضاء الأرب من الاجتماع بالإخوان على الشراب والقصف والتداعى إلى تلك المجاذبة الماجنة بين القيان والندمان والاستباحة المسرفة لكل ممكن من اللذات والشهوات؛ فهو الذى يقول :—

لم أصح من لذة، كلا ولا طرب وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
نفسى تنازعنى اللذات دائبة وإنما اللهو واللذات من أربى

وهو أيضا القائل :

سأنقاد للذات متبع الصبا لأمضى همى أو أصيب فتى مثلى
هل العيش إلا أن أروح مع الصبا وأغدو صريع الكأس والأعين النُجْل

نعم كانت هذه فلسفته فى الحياة، وتلك كانت نظرته إلى الدنيا يغتنم صفوها ويتمتع بلذاتها، وقد مضى مع هذه الغرة طول دهره حتى انقطع فى آخر حياته إلى صديقه الفضل بن سهل وزير المأمون، فقلده البريد بجرجان، وبقى بها إلى أن وشى بالفضل إلى المأمون فوجه إليه خاله غالبا فقتله بسرخس سنة ٢٠٢ هـ وقبل ذلك أصيب بامرأة له من أهله كانت تكفيه وتساعده على أمره وهو

يومئذ شيخ قد خلا من سنه، فثابت نفسه عن اللهو، وعزفت عن البطالة، وعافت الشعر والأدب، وسكنت إلى الوحشة من الناس والزهد فى الدنيا والانقطاع إلى النسك حتى قيل إن راويته كان يعرض عليه إذ ذاك ديوان شعره، فغافله وقذف بالديوان فى البحر، فلم يبق فى أيدى الناس منه إلا ما كان عند ممدوحيه من قصائده وما تفرق من ذلك فى العراق عند الرواة والمعاصرين من الشعراء.

ويقول ابن النديم: إن شعره فى نحو مائتى ورقة على الحروف جمعه ورتبه أبو بكر ابن يحي الصولى ورجل آخر كان فى زماننا، وبين أيدينا له ديوان مطبوع بمدينة بومبى بالهند من رواية أبى العباس الوليد بن عيسى الطنجى وديوانه المطبوع بليدن فى هولانده للمستشرق «دى جوجى» وكل منهما يذكر فى أخبار مسلم وأحاديثه جميع الكتب التى تناولته بالذكر: كالأغانى، وابن قتيبة، والموشح، والفهرست، ومطلع الفوائد، والموازنة، والنوادر، والكامل، وشرح المقامات، وكتاب المحب والمحبوب، ولطائف المعارف، ومقدمة الشعر لابن منقذ، والعقد الفريد، وزهر الآداب، والعمدة لابن رشيق.

ونشير هنا إلى بعض ماذكرته هذه الكتب عن أدبه وشعره ونقتطف من أحاديثه ومجالسه مع إخوانه ومعاصريه ماقد يميط لنا اللثام عن موقفه من هذا العصر من جهة تأثيره فى بناء مجده الأدبى الخالد على الدهر.

يقول ابن قتيبة: إنه كان مداحا محسنا ويذكر انقطاعه إلى يزيد بن مزيد قائد الرشيد ومديحه للبرامكة ولكاتبهم محمد بن منصور الحميرى ولداود بن حاتم المهلبى وماحظى به من جوائزهم التى بلغت آلاف الآلاف من الدراهم. وكذلك يقول أبو الفرج فيما حدث به عن أبى العباس المبرد: إنه كان شاعرا حسن النمط جيد القول فى الشراب، وكثير من الرواة يقرنه فى هذا المعنى بأبى نواس. وصاحب العمدة يجعله أيضا من طبقته ويذكر معه العباس بن الأحنف والفضل الرقاشى وأبان اللاحقى ويقول إنه زهير المولدين. كان يبطأ فى صنعته ويجيدها. وجعله عند

جماعة فوق أبى نواس، إلا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبض كان فى مسلم وإظهار توقر وتصنع ، وكان صاحب روية وفكرة لايبتدىء ولا يرتجل ثم يوازن بينه وبين أبى تمام فيجعله أسهل منه شعرا وأقل تكلفا . ويذكر رأى البحترى فى تقديم أبى نواس عليه ؛ لأنه كان يتصرف فى كل طريق ويتبرع فى كل مذهب إن شاء جد وإن شاء هزل . ومسلم يلزم طريقا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لايتخطاه . ويذكر سخرية البحترى من ثعلب فى مخالفته لهذا الرأى بأن ذلك ليس من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله وإنما يعرف الشعر من تمرس بنظمه ودفع إلى مضايقه. وظاهر مافى هذا الحكم من التحامل على مسلم وما فيه من المخالفة للصواب ، فإن كثيرا ممن لايقولون الشعر من الأدباء يعرفون جيده من رديئه، ويستطيعون الحكم على المطبوع والمتكلف من الشعراء ، ويصح الاطمئنان إلى أحكامهم فى النقد وآرائهم فى الأدب . ويوضح لك هذا التحامل أن دعبل بن على كان تلميذ مسلم وخريجه وخادمه ، وكان لايزال يقول الشعر ويعرضه على مسلم وهو يقول: إياك أن يكون أول ما يظهر لك ساقطا. فإنك مهما تجودت بعده فلا تزال تعرف به حتى قال قصيدته التى كان يسميها القديمة فرضى عنه مسلم وأمره بإذاعة أشعاره بعد ذلك . ومع هذا يقدمه البحترى على مسلم ويفضله عليه ويقول إن كلامه أشبه بكلام المتقدمين وأدخل فى مذاهبهم من مسلم، وهو مالم يقل به أحد غيره . ويقول الآمدى فى الموازنة: إن مسلما كان يرتفع عن أبى تمام فى الدرجة لسلامة شعره وحسن سبكه وصحة معانيه، ويرتفع أبو تمام عن سائر من ذهب مذهب مسلم فى البديع لكثرة محاسنه واختراعاته. ويذكر أنه حلف لا يصلى حتى يحفظ شعر مسلم وأبى نواس فمكث كذلك شهرين حتى حفظه ودخل عليه بعض إخوانه يوما فرأى شعرهما بين يديه فقال له ماهذا؟ فقال « اللات والعزى » وأنا أعبدهما من دون الله . ويقول فى نسبة البديع إلى

مسلم :إن هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منثورة متفرقة فى أشعار القدماء ،فقصدهامسلم وأكثرمنها فى شعره، وهى فى كتاب الله موجودة ووشح بها شعره ووضعها فى موضعها ثم لم تسلم مع ذلك من الطعن،حتى قيل :إنه أول من أفسدالشعر. نقل ذلك عن محمد بن القاسم بن مهرويه. كما قيل:إن أول من أفسدالكتابةالبديع والحريرى وتلاميذهما. وظاهر أن معنى ذلك قصور المقلدين لهؤلاء من المتأخرين عن مجاراتهم،لتخلفهم وانحطاط ملكاتهم ففسدت بذلك الكتابة والشعر . ولعلك حين تستمع إلى مايقوله مسلم فى أبى نواس ومايقوله أبو نواس فى مسلم تستريح إلى ماذهب إليه الجمهور فى ترتيب هـذا الشاعر فى مرتبته من أهل عصره .فقد قيل:إن أبا نواس ومسلما كان كل منهمايشتاق أن يرى صاحبه،وكاناإذا حضر أحدهما مجلسا تخلف الآخر حتى اجتمعا ذات يوم ،فأنشده أبو نواس « أجارة بيتينا أبوك غيور » وأنشده مسلم « أجررت حبل خليع فى الصبا غزل » قال دعبل ابن على فلقيت بعد ذلك أبا نواس فسألته عن مسلم،فقال:هو أشعر الناس بعدى. وسألت مسلما عنه فقال:هو أشعر الناس وأنا بعده.والنقدالحديث الذى يستمد حجته من الاستيعاب لكلام الشاعر ويعتمد فيما يصفه به على تاريخه ومذهبه سيضطر إلى التسليم بهذا الرأى ويضعه ثانيا لأبى نواس،لأنهما يشتركان فيما عرفا به من الخصائص الفنية من جهة الاختيار والأسلوب وحسن الافتتاح للمعانى البارعة فى وصف الشراب والسقاة والغناء والغزل . ولكن الحكمى حقا يمتاز بالقدرة على التصرف وترك التكرار للألفاظ وللتشبيهات إلا فى بعض غزله وطردياته التى وصف بهافهود الصيد وكلابه ونعت بها الديكة وهى تسع وعشرون أرجوزة وأربع قصائد تفى وحدها بشعر مسلم أو بما بقى منه بعد صنيعه المعروف بشعره مع راويته ولذا يكون من الصعب على المتناول أن يضع موازنة صادقة بين الشاعرين لاختلاف وسائل الحكم فى المأثور عنهما من الشعر قلة وكثرة

كما هو ظاهر. ومن الطبيعى أن يكون لهذا النقص دخل فيما صير بعض النقاد إلى وصف مسلم بضيق المذهب وقلة التصرف والاقتصار على بعض الفنون الشعرية دون بعض وإن كان يمتاز فى فنه الغزلى بأنه لم يفرد المذكر بالغزل ولم يطل معه ولم يسرف باظهار العورة والتصريح الكاشف الذى كان يرضى العامة وكثيرا من المستهترين من الخاصة عن أبى نواس وكان سببا فيما حظى به من الشهرة دون مسلم. وسنعرض من كلاميهما قصيدتين متشابهتين فى العروض والقافية والموضوع تمثلان حياة المجون وتصفان ناحية من نواحى الاجتماع فى ذلك الظل السابغ من مجد التاريخ العربى فى الخلافة العباسية عند ذكرنا للغزل فى شعر مسلم.

أما المديح فى شعره فهو على أنه نتاج طبع مهذب متحضر وثمرة تفكير وروية طويلة لم يخل من التقليد لمذاهب المتقدمين والتأثر بطريقتهم وأساليبهم فى النظم، فهو حين يمدح لايعدو أن يفتتح شعره بالغزل ثم يصف رواحله وسيره فى الصحارى المقفرة ويتخلص من ذلك إلى الغرض بالمناسبة المحكمة أو الفجاءة المقتضبة، ويذكر الممدوح فيجعله كالأسد فى الإقدام والبسالة. وكالموت فى تحدى الابطال بالآجال. وكالغيث فى البذل للنوال. وإنه يكسو بالدماء شفار السيوف، وينحر هجان الكرم للضيوف، ويمضى معه إلى آبائه وقومه فيتحدث عن وقارهم ومجالسهم، ويشا كل بين كهولهم وولدانهم، فيقترب بذلك من زهير فى صنيعه بآل أبى حارثة وتطول قوافيه ويبعد مداه حتى تبلغ القصيدة الواحدة إلى تسعين وإلى مائة من الأبيات، وتوقعه هذه الإطالة فى التكرار للمعانى وللألفاظ كما قدمنا، وكذلك كان الشعر فى عصر مسلم يتلاقى فيه الشعراء عند المديح على أسلوب متشابه يشق معه التمييز بين شاعر وآخر: لشدة المشابهة بين مباديه ومقاطعه ولقلة الخلاف بين معانيه وأفكاره: ولأنه كان فى الغالب غير متصل بشعور الشاعر ولا معبر عن صحة إحساسه وصدق نيته ويقصد منه فى

الجملة الحظوة بجوائز الممدوحين: لاشباع الشهوات وكفاية الطلبات . وإن كان بالضرورة متأثراً بطوابع الحضارة الجديدة فى صفاته وإشراق ديباجته وسلامة جوانبه من الغرابة التى لم يكن يخلو منها الشعر فى عصوره القريبة من عهد مسلم الذى كان كما تقدم قد ارتقى فيه مستوى العقلية العربية حتى خلعت على سوانح الشعراء ألوانا من البهاء والخلابة والمعانى المتخيرة المنتزعة من هذه المدنيات الصناعية والمستحدثات المجانسة لأبهة الملك وعظمة الدولة . وفيما نسوق من مدائح مسلم التى هى الكثرة الغالبة من شعره إذ هى نحو ٧٠٠ بيت من مجموع لا يتجاوز الألف إلا بقليل ، سيظهر لنا شدة اتصالها بمذهبه المعروف من التنقيح وطول الروية، والمعاودة إلى الإسقاط والتتبع . وما كان يبذله فى تأليفها من الجهد وما استودعها بذلك من القوة والحلاوة — مع استخدامه فى كل حين لأنواع من البديع لا تحس له فى معظمها بنبوة طبع ،ولا كد خاطر، ولا اجتلاب قافية أو استكراه كلمة، إلا مالم يسلم منه من الحب لكلمات بعينها يرددها فى المقام الواحد وفى المقامات المختلفة مثل كلمة: الصبا، والغزل، والأعين، والنجل حين يتغزل. وكذكر البطل والأبطال فى المديح متعاقبة ، وفى القافية إلى غير ذلك مما سنشرحه فيما اخترناه من مدائحه التى أولها لاميته فى يزيد بن مزيد وثانيها مدحته لداود بن حاتم المهلبى، والثالثة قصيدته للفضل بن يحيى البرمكى نختار من كل واحدة منها أبياتا نستأنس بها فى تصحيح دعوانا على مسلم .

ويذكر المؤرخون أن الوليد بن طريف الشارى وهو شيبانى من رهط يزيد ابن مزيد كان خارجا على الرشيد فقد اشتدت عليه شوكته حتى أضر به ذلك إضرارا شديدا، فأشار عليه البرامكة بأن يرميه بيزيد، وكان لانحرافهم عنه يريدون به إحدى اثنتين: أن يقتل أو ينهزم، فيكسره ذلك عند الخليفة أو يريحهم منه . فجعل يزيد يما كره حتى أمكنه فقتله. ففرح بذلك الرشيد وسر به واستقبل يزيد حتى أجلسه معه على سريره، فمدحه مسلم من غير أن يلقاه أو يعرفه على ماجرت

به عادة الشعراء من ميلهم إلى تخليد الأبطال وتقييد المآثر بهذه القصيدة التى نسوقها إليكم قال مسلم: —

أجررت حبل خليع فى الصبا غزل ... وشمرت همم العذال فى عذلى
هاج البكاء على العين الطموح هوى ... مفرق بين توديع ومحتمل
أما كفى البين أن أرمى بأسهمه ... حتى رمانى بلحظ الأعين النجل
ماذا على الدهر لو لانت عريكته ... ورد فى الرأس منى سكرة الغزل

ثم يقول:

وبلدة لمطايا الركب منضية ... أنضيتها بوجيف الأينق الذلل
فيها المقام وهذا النجم معترضا؟ ... دنا النجاء وحان السير فارتحل
يامائل الرأس: إن الليث مفترس ... ميل الجماجم والأعناق فاعتدل
حذار من أسد ضرغامة بطل ... لا يولغ السيف إلا مهجة البطل
لولا يزيد لأضحى الملك مطردا ... أو مائل السمت أو مسترخى الطول
ناب الامام الذى يفترعنه إذا ... ما افترت الحرب عن أنيابها العصل
كم قد أذاق حمام الموت من بطل ... حامى الحقيقة لا يؤتى من الوهل
أغر أبيض يغشى البيض أبيض لا ... يرضى لمولاه يوم الروع بالفشل
يغشى الوغى وشهاب الموت فى يده ... يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
يفتر عند افترار الحرب مبتسما ... إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج فى يوم ذى رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق مايعيا الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتى على مهل
يغشى المنايا المنايا ثم يفرجها ... عن النفوس مطلات على الهبل
يقرى المنية أرواح الكماة كما ... يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف دماء الناكثين به ... ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
يغدو فتغدو المنايا فى أسنته ... شوارعا تتحدى الناس بالأجل

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل
تراه فى الأمن فى درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
صافى العيان ، طموح العين، همته فك العناة وأسر الفاتك البطل
لا يعبق الطيب خديه ومفرقه ولا يمسح عينيه من الكُحل

ثم يقول :

لا تُكذَبَنَّ فإن الحلم معدنه وراثة فى بنى شيبان لم تزل
الزائديون قوم فى رماحهم خوف المخيف وأمن الخائف الوجل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له حلما وطفلهم فى هدى مكتهل
اسلم يزيد فما فى الدين من أود إذا سلمت وما فى الملك من خلل
لولا دفاعك بأس الروم إذ مكرت عن بيضة الدين لم تأمن من الثكل
والمارق ابن طريف قد دلفت له بعسكر للمنايا مسبل هطل

وبالتأمل فى هذه القصيدة ترى فيها عدة أبيات لا يوجد فى بعضها كبير فضل فى المعنى عن بعض مع ماهو ظاهر من التكرار لكثير من الكلمات والقوافى.وقد نظر فى قوله :

قد عود الطير عادات وثقن بها (البيت)إلى قول النابغة :

إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب

وتخلف فى قوله :—

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة(البيت)

عن الأعشى فى قوله لقيس بن معد يكرب :

وإذا تجىء كتيبة ملمومة خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

ويروى أن يزيد اعترض عليه بهذين البيتين بعد تلاقيهما،فقال له وصفتك أيها الأمير بالحزم ووصف صاحبه بالخرق . وكذلك قال كثير لعبد الملك

ابن مروان حين أنشده قوله فيه :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالها

وليس الأمر على هذا الوجه من قول كثير ولا مسلم؛ إذ يقول الجرجانى فى الوساطة : إن مذاهب العرب المحمودة عندهم الممدوح بها شجعانهم التفضل عند اللقاء وترك التحصن فى الحرب، وإنهم يرون الاستظهار بالجنن ضربا من الجبن وكثرة الاحتفال والتأهب دليلا على الوهن. ويروى أنه كان عند الرشيد ليلة فقال له من الذى يقول فيك: تراه فى الأمن (البيت) فقال : لا أدرى يا أمير المؤمنين. فقال له سوءة لك من سيد قوم تمدح بمثل هذا الشعر ولا تعرف قائله وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه وحفظه ووصل قائله !

فخرج من عنده فطلب مسلما فكان هذا أول اتصاله به. ولا يفوتنا هنا أن نذكر شيئا عن الفارعة أخت الوليد بن طريف فإنها كانت شاعرة جيدة الكلام. فمن قولها ترثى أخاها بعدما حاولت أن تأخذ بثأره وكانت تتشبه بالخنساء فى الرثاء : —

ذكرت الوليـــد وأيامه إذا الارض من شخصه بلقع
فأقبلت أطلبه فى السما كما يبتغى أنفه الأجدع
أضاعك قومك فليطلبوا إفادة مثل الذى ضيعوا
لو ان السيوف التى حدها يصيبك تعلم ما تصنع
نبت عنك أو جعلت هيبة وخوفا لصولك لا تقطع

أما مديحه لداود بن حاتم المهلبى فقد حدث الحسن بن سعيد فقال : كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا. فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه فوجه إليه مسلم بن الوليد راويته بشعره الذى يقول فيه جعلته حيث ترتاب الرياح به (البيت) فقدم عليه عقب انصراف الشعراء من عنده فقال لحاجبه استأذن على الأمير. فقال له ومن أنت؟ قال شاعر. قال قد

انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام. فقال ويحك إنى وفدت على الأمير بشعر ماقالت العرب مثله. قال وكان مع الحاجب أدب يفهم بهمايسمع فقال هات حتى أسمع فإذا شيء يقصر عنه الوصف. فدخل على داود فقال له: قدم على الأمير شاعر بشعر ماقيل فيه مثله، فأمره بإدخاله، فلما افتتح القصيدة بين يديه استوى جالسا وأطرق حتى فرغ ثم قال له: أهذا شعرك؟ قال نعم. قال فى كم قلته؟ قال فى أربعة أشهر. قال لو كنت قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا. وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك وإنى أنظرك أربعة أشهر فى مثله وأجرى عليك، فإن فعلت كنت صاحبه وأجزلنا صلتك عليه وإلا حرمناك فقال أو الإقالة قال نعم. قال الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك به فقال: أنا ابن حاتم ثم أمر له بجائزة وحمل إلى مسلم من ساعته مائة ألف. وإنما سقنا هذه القصة لنعلم منها مبلغ ما كان عليه القواد وأهل الرياسات فى تلك الأزمان من لطف الفطنة وتمام البصيرة والمعرفة بأقدار الكلام، وسترونه حين يفتتح القصيدة ينهى صاحبه عن دعوى الشوق له ويذكر أنه انتهى عن هوى الهيف مع أنه لو شاء راجع الصبا ومشت فيه عيون الغيد ويتساءل كيف أمضى ليلة الخيف بالراح وأنه شجها بلعاب المزن فحل أعلاها وعقد أسفلها وينتهى من ذلك إلى ذكر مامر به من مجاهل الطريق تحسر به الرياح وألاذها بأكناف الجلاميد من الصخور وقراه بالسير على ناقته التى تفرى باخفافها الفلوات، وتبادر به إلى الممدوح إسفار الصباح مقلدا فى ذلك للأخطل حتى يرويها على داود الذى يغنى مناه بأدنى عطاياه فيطفىء به نيران الحروب ويشق لمتوحد رأيه الظنون ويمثل له الأمور من وجوهها ويجعل مثله الليث الهصور الذى يلقى المنية فى أمثال عدتها ولا يقصر إن قصرت الرماح ولا يعرد إذا عردت السيوف، يدانى المناهل ويدرك الغايات مع المهل، ويعطف على قومه فيجمل لهم رق الصريح وإنجاب الفتيان وأنه يداوى الثغور، ويخلى المعاقل من

الأبطال ويجود بالنفس حين يضن بها الجواد، ويذكر صلبه لبعض من ظفر به من الخوارج وكيف أنه أعلى جذعه فى الهواء حتى ارتابت به الرياح وحسدت الطير عليه ضباع البيد ومضى به بين هذه المناقب التى عددها له حتى انتهى إلى قيادته للخيل التى يقدمها على النصر ويؤوبها بالغنائم يغدو له كل طالب ويأوى منه كل طريد إلى ماجد متعود صدق الحديث وإنجاز المواعيد يقول :

لاتدع بى الشوق إنى غير معمود   نهى النُّهى عن هوى الهيف الرعاديد
لو شئت ـ لاشئت ـ راجعت الصبا ومشت   فىّ العيون وفاتتنى بمجلود
سل ليلة الخيف هل أمضيت آخرها   بالراح تحت نسيم الخرد الغيد
شججتها بلعاب المزن فاغتزلت   نسجين من بين محلول ومعقود

ثم يقول :—

ومجهل كاطراد السيف محتجز   عن الأدلاء مسجور الصَّيا خيد
تمشى الرياح به حسرى مولهة   حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد
قريته الوخد من خطارة سرح   تفرى الفلاة بإرقال وتوخيد

وترونه هنا ينهج سبيل الأخطل فى إحدى جياده العشر إذ يقول :—

ومهمه نازح تعوى الذئاب به   نائى المياه عن الوراد مقفار
جاوزته بعلنداة مناقلة   وعر الطريق على الأحزان مضمار

قال مسلم :—

إليك جاوزت إسفار الصباح بها   فى جنح ليل رحيب الباع ممدود
حلت بداود فامتاحت وأعجلها   حذو النعال على أين وتحريد
أعطى فأفنى المنى أدنى عطيته   وأرهق الوعد نجحا غير منكود
والله أطفأ نار الحرب إذ سعرت   شرقا بموقدها فى الغرب داود
لم يأت أمراً ولم يظهر على حدث   إلا أعين بتوفيق وتسديد
موحد الرأى تنشق الظنون له   عن كل ملتبس منها ومعقود

تمنى الأمور له من نحو أوجهها وإن سلكن سبيلا غير مورود
كالليث بل مثله الليث المصور إذا غنى الحديد غناء غير تغريد
يلقى المنية فى أمثال عدتها كالسيل يقذف جلمودا بجلمود
إن قصر الرمح لم يمش الخطا عدداً أو عرد السيف لم يهمم بتعريد
إذا رعى بلدا دانى مناهله وإن بنين على شحط وتبعيد
جرى فادرك لم يعنف بمهلته واستودع البهر أنفاس المجاويد
آل المهلب قوم لايزال لهم رق الصريح وأسلاب المذاويد
نجل المناجيب لم يعدم تلادهم فتى يرجى لنقض أو لتوكيد

ثم يقول :—

تلك الأزارق إذ ضل الدليل بها حتى أخذت عليه بالأخاديد
كان الحصين يرجى أن يفوز بها حتى استقل به عود على عود
وضعته حيث ترتاب الرياح به وتحسد الطير فيه أضبع البيد
لا يعد منك حمى الإسلام من ملك أقمت قلته من بعد تأويد
كفيت فى الملك حتى لم يقف أحد على ضياع ولم يحزن لمفقود
لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها يعهدن فى كل ثغر غير معهود
محلات إذا آبت غنائمها ومقدمات على نصر وتأييد
تستأنف الحمد فى دهر أوائله موسومة بفعال منك محمود
عودت نفسك عادات خلقت لها صدق الحديث وإنجاز المواعيد

أما مدحته للفضل بن يحيي فقد وقعت فى ديوانه موجهة إلى الفضل بن جعفر بن يحيي. وفى كتاب « الشعر والشعراء » أن الممدوح بها هو الفضل بن يحيي وكذلك فى ترجمة مسلم فى الأغانى. وقد بحثنا فى ولد جعفر البرمكى فلم نجد بينهم من يسمى الفضل على ماذكره صاحب العقد وإن كان الجهشيارى ذكره فى كتابه الوزراء والكتاب. ولعل الذى أوقع شارح الديوان فى هذا رواية

بعض أبيات القصيدة منسوبا فيها الفضل إلى جعفر فى قوله :—

وردن رواق الفضل فضل بن جعفر. وهى رواية فى البيت، ويروى البيت:

وردن رواق الفضل فضل بن برمك ، ويروى أيضا وردن رواق الفضل يأملن فضله. والذى يطالع تاريخ القصيدة فى الأغانى لايتردد فى أن صاحبها الذى قيلت له هو الفضل أخو جعفر لاولده وهى به أشبه وهو بها أحق وقد ساقها مسلم زهيرية على مثال قول ابن أبى سلمى « صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو » وستراه يبتدئها بذكر التعزى عن الجهل والانتهاء إلى عصيان السواد والشباب ومطاوعة السلو، ويظهر لك تقليده فى هذا المطلع عودته ثانية بعد بضع أبيات إلى ذكر النساء والغزل ووصف الحجول والبرين من حلى النساء والملاحة والشكل من محاسنهن ويشبههن بالأنجم الزهر ويترك ذلك إلى جمال الطبيعة ووصف ماقطعه من المجاهل إلى الممدوح حتى ورد رواقه بالثناء والجزل فقابله بما غمره من نداه الذى جعل مزنته مرعى الآمال ومعدنا للنوال وذكر ماتساقطه يمينه من الندى، وشماله من الردى، وما يفصله منطقه من عيون القول متبعا فى ذلك ماسنه آباؤه ومنتهجا منهج زهير فى لاميته كما قلنا ووصفه باستحلاء نعم فى فمه كأنها مجاجة النحل وبتحمله للأعباء وعطف على مغارسه وأصوله فأضافها إلى تلك الهضبة البرمكية التى لايطير الجهل بحباها ولا يفوت الذحل حماها ثم استمطر الغنى من كفيه واستعطف الأمر الأبى بحزمه وانتهى إلى الحكم بأنك متى شئت الظفر بالغنى فادن من الفضل أو ليأذن لك الفضل تجد السماح وافرا والغنى حاضرا يقول مسلم :

تعز فقدمات الهوى وانتهى الجهل	فرد عليك الحلم ماقدم العذل
أحين طوى عن شرة اللهو شرة	يطيع سواد الرأس إن قال لا تسل
فدع قلبه والنأى لايذكر الهوى	ليالى يلقاه بأترابه الشمل

خرجن خروج الأنجم الزهر والتقت ... عليهن منهن الملاحة والشكل
غفين على غيب الظنون وغضت البسر ... ين فلم ينطق بأسرارها حجل

ثم يقول :

وغبراء لا يسقى على الخمس ركبها ... قطعت وريق الشمس يغلى به السجل
إذا شئت خلفت الصبا أو صحبتها ... بوجناء موصول بغاربها الرحل
أتتك المطايا تهتدى بمطية ... عليها فتى كالنصل يؤنسه النصل
فلما رأين النور بركن تحته ... على أمل يشجى به اليأس والمطل
وردن رواق الفضل فضل بن برمك ... فحط الثناء الجزل نائله الجزل
فتى ترتعى الآمال مزنة جوده ... إذا كان مرعاها الأمانى والبطل
تساقط يمناه ندى وشماله ... ردى وعيون القول منطقه الفصل
ألح على الأيام يفرى خطوبها ... على منهج ألفى أباه به قبل
كأن نعم فى فيه يجرى مكانها ... سلافة ما مجت لأفراخها النحل
حمولا لعبء الدهر ينهض عفوه ... به مستقلا حين لا يحمل الثقل
أناف به العلياء يحيى وجعفر ... فليس له مثل ولا لهما مثل
فروع تلقتها المغارس فاعتلى ... بها عاطفا أعناقها قصده الأصل
جرى آخذا يحيى مقلد جعفر ... وصلى أمام السابقين ابنه الفضل
بكف أبى العباس يستمطر الغنى ... وتستنزل النعمى ويسترعف النصل
ويستعطف الأمر الأبى بحزمه ... إذا الأمر لم يعطفه نقض ولا فتل
إذا ما أبو العباس حل ببلدة ... كفاها الحيا واستجهل الخوف والمحل
تبسم عنك السهل فى غاية الندى ... كذلك يحيى كان قدمه المهل
وما خولتك المكرمات سجية ... حبيت بها إلا وأنت لها أهل
رقيب على غيب الأمور ورجما ... برأى قويم منه ما الغصب والختل
متى شئت رفعت الستور عن الغنى ... إذا أنت زرت الفضل أو أذن الفضل

وننتقل بعد ذلك إلى شيء نستروح به من هـذا الجد إلى بعض مايتسع المقام لذكره من غزله ووصفه للشراب والسقاة ،ونبدأ بذكر القصيدة التى قدمنا أن الرشيد كان حفظها له فى صباه واستحسن مافيها من وصف شراب وغزل،وقد افتتحها بمطالبة صاحبيه أن يديرا عليه الراح ونهاهما عن طلب قاتلته بدمه وهى التى لايحزنه أن يموت صبابة من أجلها ولكنه يجزع لفراقها وقولها لصاحبتها : إن الثريا أقرب إليه من وصالها وهى بذلك تحيي مهجته وتميتها بين وعدها ومطالها وقلة نيله سوى الشجو من حبها ثم يصف مازادته عيناه من النظر إليها واستراحته من العذال لكتمانه صبابته بها وانتقل إلى ذكر الخمر فجعلها تمنح شرَّابها الملك وسماها مجوسية الانساب كما سيفعل فى رائيته الآتية . وهو يقصد أنها فى الأصل كرمة تسق بالماء حتى تصير عنبا، ثم تعصر فاذا صارت خمرا مزجت بالماء فكأنها زوجت به،فكان قبل أباها ثم صار حليلها فأشبهت المجوسية التى يتزوجها أبوها كما كان ذلك سائغا فى شرائعهم، ثم جعل يصف اختمارها وطبخ الطبيعة لها وماتثيره من النشوة والفرح فى أصحابها وماتبعثهم عليه من الاهتزاز والأريحية وذكر طلبه إياها ورُقْيَتَه للمغالى بها من أهلها وتعتيقها وإغارتها على كف المدير بلونها وإماتتها للنفوس وإحياءها ومايتصاعد فى الأقداح من حبابها وشبه بالظباء العكَّف أباريقها وذكر الساقية الحوراء ومضاحكها لعودها وإسعاد المزمار لها واستغناءهم عن النُّقْل بابتسامها،وعطف على رفاقه الموافقين وصحابه المواتين ، فجعل الراح إذا علت منهم الذوائب تمشت بهم كما يمشى المقيد فى الوحل،وعاد إلى الساقية يكرر ذكر محاسنها وينزه عينيه بالنظر إلى عينيها وهى تقوده إلى الصبا وترده صريع الكأس والأعين النجل . يقول :

أديرَا علىَّ الرَّاحَ لاَ تَشْربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذَحْلِى
أحبُّ التى صدَّت وقالت لِتِرْبِها دعِيه :الثُّريا منه أقربُ من وصلى

أماتت وأحيت مُهجتى فهى عندها مُعلقَةٌ بين المواعيد والمَطْل
وما نِلتُ منها نائلا غيرَ أننى بِشَجْو المحبين الأُلى سلفوا قبلى
كتمتُ تباريحَ الصبابة عاذلى فلم يَدرِ مابى فاسترحتُ من العذْل
ومانحةٍ شُرَّابها المَلكَ قهوة بجُوسيةِ الأنساب مسلمةِ البعل
ربيبة شمس لم تهجن عروقها بنار ولم يقطع لها سعف النخل

يريد أنها معصورة من العنب مطبوخة بحرارة الشمس وليست تمرية تقطع لها أغصان النخيل :

تصد بنفس المرء عما يغمه وتُنطق بالمعروف ألسنةَ البخل
بعثنا لها منا خطيبا لِبضعها فجاء بها يمشى العرَضْنة فى مهل
رقى ربُّها حتى احتواها مغاليا عقيلته دون الأقارب والأهل
فوافى بها عذراء كل فتى ندى جزيل العطايا غير نِكس ولا وَغْل
معتقة لاتشتكى وطأ عاصر حرورية فى جوفها دمها يغلى

جعلها حرورية لتوقدها وحدتها إشارة إلى ماكان يوصف به أولئك الخوارج من الحرورية من الاشتغال والحرارة والنجدة

أغارت على كف المدير بلونها فصاغت له منها أنامل كالذَّبْل

يشير بذلك إلى مايلقيه لون الزجاجة من شعاع صفرتها على أنامل الساقى فيجعلها مشابهة لتلك العظام الصفر المأخوذة من الفيلة أو من سلاحف البحر وهى الذبل :

أماتت نفوسا من حياة قريبة وفاتت فلم تطلب بتبل ولا ذَحل
كأن حَباب الماء حين يشجها لآلىء عقد فى دماليج أو حجل
كأن ظباء عكّفاً فى رياضها أباريقُها أوجسن قعقعة النبل
ظللنا تناغى الخلد فى مشرع الصبا علينا سماء العيش دائمة الهطل
وحن لنا عود فباح بسرنا كأن عليه ساق جارية عُطْل

أى معطلة مما تتزين به السيقان من الخلاخيل ونحوها ليتم الشبه بين رقبة العود وبين الساق من الجارية

تضاحكه طورا وتبكيه تارة   خدلَّجةٌ هيفاء ذات شوى عبل
إذا ما اشتهينا الأقحوان تبسمت   لنا عن ثنايا الاقصار ولا ثعل
وأسعدها المزمار يشدو كأنه   حكى نائحات بتن يبكين من ثكل
غدونا على اللذات نجنى ثمارها   ورحنا حميدى العيش متفقى الشكل
أقامت لنا الصهباء صدر قناتها   ومالت علينا بالخديعة والختْل
إذا ماعلت منا ذُؤابةَ شارب   تمشَّت به مشى المقيد فى الوَحل
فلا نحن متْنا ميتة الدهر بغتة   ولا هى عادت بعد عَلٍّ إلى نَهْل

ثم عاد إلى تكرار معناه فى الساقية بما فيه من تشبيه ووصف وتخيل ولم يكد يغير مما سلف شيئا — يقول:

وساقية كالرئم هيفاءَ طَفْلة   بعيدة مهوى القُرْط مُفْعمة الحجل
نُنَزِّهُ طرفى فى محاسن وجهها   إذا احتُثَّت الطاسات يغنى عن النُّقْل
سأنقادُ للذات متبع الصبا   لأمضىَ همى أو أصيبَ فتى مثلى
هل العيش إلا أن أروح مع الصبا   وأغدو صريع الراح والأعين النُّجْل

وتراه فى هذه القصيدة لم يدع شيئا مما كان يدور فى مجالس اللهو إلا ذكره من وصف الشراب والغناء والسقاة وحنين العيدان وإسعاد المزامير . وعف عما وراء ذلك مما كان يصطنعه دائما أبو نواس فى غزله وخمرياته من استعانته على إرسال شهوة النفس إلى غاياتها الدنيئة مجونا وتعاهرا بذكر العورات ومضاجعة الفاحشة مما نعتقد أنه كان ذريعة قبيحة إلى انتشار هذا اللون من الخطيئة فى الغزل بالمذكر والإسراف فى المباهاة بحبه والوقوع فى الشناعة والإثم بانتهابه وقضاء الأوطار منه. وسنوازن هنا بينه وبين مسلم فيما وعدنا به من قصيدتيهما اللتين نوهنا عنهما آنفا،وسوف نجد له حلاوة تتصل بحسن

الاختيار للفظ، وقوة النسق، ورشاقة المعرض، وملاحة المعانى التى لم يعبها أنه يكررها فى هذه القصائد التى ساقها مساق الوصف للذات الحياة والاستهتار بالشهوات والغزل، فسوف يذكر الراح فيجعلها مجوسية الأنساب مسلمة البعل كما فعل فى لاميته السابقة ويجعلها هنا بنت مجوسى، أبوها حليلها، فيفتتح القصيدة بذكر ساحرة العينين التى تسره بالوصل وتجاهره بالقطيعة، وما يلقاه من الوشاة من تكديرهم لصفو هواه، وينتهى من ذلك إلى زائرته التى راع النوم بلقائها وعادى من أجلها كوكب الصبح، ويصف مشيها وخوفها من نميمة حليها وعطرها ومناجاته لها والبدر يمثلها له وهى تمثله له إلى أن يعود الى ذكر الراح وأحب الندامى اليها وما تصبغ به جلابيب السقاة ويقول فى غزل المذكر: ودار بها ظبى يتجاذبه الشراب، ويسارقونه اللحظات وهو يسقيهم من يده ومن طرفه ويذكر سلوكه للصبا غرائب السبل، ويشبه الأقداح بنهود الكواعب العذارى، ويختم هذا الوصف بذكر الغناء والعزف فهو يقول :—

وساحرة العينين ماتحسن السحرا   تواصلنى سرا وتقطعنى جهرا

أبت حدق الواشين أن يصفو الهوى   لنا فتعاطينا التعزى والصبرا

وزائرة رعت الكرى بلقائها   وعاديت فيها كوكب الصبح والفجرا

إذا مامشت خافت نميمة حليها   تدارى على المشى الخلاخيل والعطرا

فبت أسر البدر طورا حديثها   وطورا أناجى البدر أحسبها البدرا

وبنت مجوسى، أبوها حليلها   إذا نسبت لم تعد نسبتها النهرا

يعنى بقوله بنت مجوسى الخمر، وجعلها كذلك ناظرا إلى ماكان معروفا فى شرائع المجوس من استحلال الرجل لبنته، ولما كانت الخمر من العنب وهو من الماء فالماء أبوها ثم يمزج بها عند الشراب فهو حليلها :

أخص الندامى عندها وأحبهم   إليها الذى لايعرف الظهر والعصرا

بعثت لها خطابها فأتوا بها   وسقت لها عنهم إلى ربها المهرا

إلى أن تلاقوها بخاتم ربها ... مخدرة قد عتقت حججا عشرا
إذا مسها الساقى أعارت بنانه ... جلابيب كالجاوى من لونها صفرا
ودار بها ظبى من الإنس ناعم ... ترود عيون الشرب جانبه شزرا
إذا ما أدار الكأس ثنى بطرفه ... فعاطاهم خمرا وعاطاهم سحرا
إلى أن دعا للسكر داع فوتوا ... وكان مدير الكأس أحسنهم سكرا
سلكنا سبيلا للصبا أجنبية ... ضمنا لها أن نعصى اللوم والزجرا
بركب خفاف من زجاج كأنها ... ثدى عذارى لم تخف من يد كرا
علينا من التوفير والحلم عارض ... إذا نحن شئنا أمطر العزف والزمرا

وعلى هذا النحو يقول أبو نواس ويمحضها لغزل المذكر مع اتصال النسق، واعتدال أقسام الكلام، وتهادى حجزاته، وتجانس مقاطعه فيستهل بذكر حواره للأحور الذمى، الذى يطرق فناءه بإخوان الصدق ليلا فيهب مذعورا خائفا كأن عسسا يستقفونه ثم يفتح أبوابه غير هائب حين يعلم علمهم ويدرك سرهم ويسأله الماجن عن اسمه، ويصف مجاذبة ردفه لخصره وجنونهم بحلاوة لفظه ثم يبتاعون منه قهوة قد عتقت دهرا فى دنها بعد أن يبذل له الخمسة الصفر فى ثمنها ومازال يسقيهم ويشرب معهم ويغنيهم بشعر مضمن من قصيدة أخرى للشاعر يهيء له المكان ويحقق المجانسة، وكثيرا مايفعل ذلك أبو نواس ثم ينتهى بألا يكنى عن السوءة كعادته بما عف مسلم عن عاره ولم يذكره فى أشعاره، يقول الحكمى :

وأحور ذمى طرقت فناءه ... بفتيان صدق ماترى منهم نكرا
فلما قرعنا بابه هب خائفا ... وأقبل نحو الباب ممتلئا ذعرا
وقال من الطراق ليلا فناءنا؟ ... فقلت له : افتح فتية، طلبوا خمرا
فأطلق عن أبوابه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمرا بدرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله ... يجاذب منه الردف فى مشيه الخصرا

فقلت له: ما الاسم؟ حييت. قال لى: دعانى أبى سابا، ولقبنى شمرا
فكدنا جميعا من حلاوة لفظه نجن ولم نسطع لمنطقه صبرا
فقلنا له: جئناك نبتاع قهوة معتقة قد أنفدت قدما دهرا
فقال: اربحوا، عندى التى تطلبونها فدا حتجبت فى خدرها حقبا عشرا
فقلت: فماذا مهرها؟ قال مهرها إليك، فسقنا نحوه خمسة صفرا
ومازال يسقينا ويشرب دائبا ألى أن تغنى حين مالت به سكرا
فما ظبية ترعى مساقط روضة كساالواكف الغادى لها ورقا خضرا
بأحسن منه منظرا زان مخبرا بل الظبى منه شابه الجيد والنحرا
فياحسنه لحنا بدا من لسانه وياحسنه لحظا وياحسنه ثغرا

وظاهر مابين القصيدتين من المشابهة فى الألفاظ والتشبيهات. ولمسلم وصف بديع للسفينة نحب أن نختم به حديثنا عنه وإن كان كما سيظهر قد تكلفه وتأنق فى نظمه وتأليفه. وقد ابتدأه بذكر الساقية وطلبه اليها أن تدير عليه الراح كما قيل فى لاميته السابقة ووصف ماباحت به الكأس من سره، وأنه إن شاء كان بين صبوح من الحب يغاديه وغبوق من الخمر يماسيه يحمل علاقة المودة بينه وبين صاحبته غمزات الحواجب ومصايد الألحاظ وانتهى إلى ذكر البحر وهو بالضرورة يقصد الفرات، فيذكر تلاطم أمواجه وترامى عبابه وهو معظمه بالجرجرة وهى صوت اضطراب الموج وتصفيقه على حافات النهر الذى يطعم حيتانه من غرقاه، ويشتد هوله على الملاحين حين تهب فيه الجنوب، فتقلب جواريه أى مراكبه أو تقف مكانها من الخوف لاتبرح، ويصف دبيب الموج فى جنباتها بما تثيره الصبا بدبيبها بين الكثبان العفر أى الحمر من الرمال. وأنه كشف شدائد الدجى وأهاويله بهذه السفينة الحاملة لما على ظهرها من المتاع والركبان، المحمولة على الماء وهى بكر لم تركب قبل هذه المرة وقد لطم خديها الحباب فخطط ظهرها ووسم نحرها، يشير إلى ما يجعله أصحاب السفن فى

مقاديمها من البياض وأنها تروعك عند إقبالها بما تراه فى مقدمتها مما يشبه قنة القرهب أى رأس الثور وتريك عند إدبارها بما ركب على جنبتيها من المجاذيف جناحى النسر فى الامتداد والإحاطة والنوتى يتنحى بها عن مواطن المخاوف كأنما يسير من لج الماء فى جبل وعر. ثم وصف خروجها من حباب الماء وهو مايتلاصق حولها من الزبد لشدة جريانها فيشبهها لذلك بالثناء الجارية من كسر ستر إلى آخر، وأنها حين تواجه نسيم الصبا تتهادى به كما تمشى العروس إلى الخدر حتى علتها أردية خضر من نسيج الموج وهى تؤم بهم محل الراغبين الذى لاتذاد عنه رحال المسافرين يركبون البحر إلى مايشبهه فى الجود والكرم فهو يقول :—

أد يرى علىّ الراح ساقية الخمر	ولاتستلينى وأسألى الكأس عن أمرى
كأنك بى قد أظهرت مضمر الحشا	لك الكأس حتى أطلعتك على سرى
وقد كنت أقلى الراح أن يستفزنى	فتنطق كأس عن لسانى بلا أدرى
ولكننى أعطيت مقودى الصبا	فقاد ثبات اللهو مخلوعة العذر
إذا شئت غادانى صبوح من الهوى	وإن شئت ماسانى غبوق من الخمر
ذهبت ولم أحـــدد بعينى نظرة	وأيقنت أن العين هاتكة ستري
جعلنا علامات المودة بيننا	مصايد لحظ هن أخفى من السحر
فأعرف منهــا الوصل فى لين طرفها	وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

ثم يقول :—

وملتطم الأمواج يرمى عبابه	بجرجرة الآذى للغير والعبر
مطعمة حيتـــانه ما يغبهـــــا	مآكل زاد من غريق ومن كسر
إذا اعتنقت فيه الجنوب تكفأت	جواريه أو قامت مع الريح لاتجرى
كأن مدب الموج فى جنباتهـــا	مدب الصبا بين الوعاث من العفر
كشفت أهاويل الدجى عن مهوله	بجارية محمولة، حامل، بكر

لطمت بخديها الحباب فأصبحت موقفة الدايات مرثومة النحر
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب وان أدبرت راقت بقادمتى نسر
تجافى بها النوتى حتى كأنما يسير من الإشفاق فى جبل وعر
تخلج عن وجه الحباب كما انثنت مخبأة من كسر ستر إلى ستر
كأن الصبا تحكى بها حين واجهت نسيم الصبا مشى العروس إلى الخدر
وحتى علاها الموج فى جنباتها بأردية من نسج طحلبة خضر
تؤم محل الراغبين وحيث لا تذاد إذا حلت به أرحل السفر
ركبنا إليه البحر فى مؤخراته فأوفت بنا من بعد بحر إلى بحر

ذلك وقد أعرضنا عن ذكر بقية ماله من الأسفار فى الرثاء والغزل، وما اخترعه من الأوزان فى الشعر كقوله مثلا : —

« يأيها المعمود قد شفك الصدود »

وهى قصيدة طويلة كلها فى الغزل والشراب والغناء ووصف الأقداح والسقاة وله مثلها فى مديح محمد بن منصور يقول فى مطلعها :

نبا به الوساد وامتنع الرقاد
وصاده غزال يرمى فما يصاد

ويقول ملغزا فى خاتم مجاريا لأهل عصره فى ميلهم إلى المعاياة والمعاجزة من عادة الفراغ وما تنتشه الدعة من حب العبث واللهو يقول :—

وأبيض أما رأسه فمدور نقى وأما جسمه فمعار
وما يشترى إلا ليسكن وسطه مؤنثة لم تكس قط خمار
لها أخوات أربع هن مثلها ولكنها الصغرى وهن كبار
ومافيه من نفع سوى خط رأسه وبَعْدُ ففيه زينة ووقار

وقد نعود إلى بعض مافاتنا من أخبار مسلم وأشعاره مرة أخرى عندما يسنح الوقت إن شاء الله .

محمد هاشم عطية

المحاضرة الثانية

فى

بعض سمـــات الشعر الحديث

لحضرة الأستاذ الفاضل

سيد قطب

بمراقبة الثقافة العامة

تمهيد :

حضرات الأساتذة والإخوان :

أسلفت فى حديثى معكم عن «الاتجاهات الحديثة فى الشعر العربى» تصوير « بعض سمات الشعر الحديث » . وقلت : إن المدرسة الحديثة تتخذ فى بعض الأحيان أساليب وتعبيرات لاتتقيد فيها بكل قيود الأساليب القديمة ، وإن كانت تحافظ دائما على الصحة اللغوية والصحة النحوية . وأنها تعد الشاعر إنسانا ذا طبيعة صادقة أولا ، وخاصة ثانيا ، وممتازة ثالثا . وأنها تفرق بين وظيفة الشاعر ووظيفة الدعاة الاجتماعيين أو الخلقيين أو القوميين ، فلا تطالبه بالاتجاه إلى هذه الوظائف ، بل تطلق له الحرية فى أن يتجه إليها أو يعكف على نفسه كأنه يحيا وحده فى هذا الكون الرحيب ، وكل ماتطلبه منه هو الصدق والخصوصية والامتياز فى الاتجاه الذى تنحو إليه طبيعته . وأن

شعر الطبيعة وشعر الحالات النفسية كانا ثمرة طيبة لاتجاهات المدرسة الحديثة وأن الثقافة والاطلاع ضروريان لنقد أعمال هذه المدرسة ، لأنها لم تكتف بطبيعتها الممتازة بل غذتها بالثقافات الإنسانية جميعا .

تلك خلاصة السمات التى استعرضتها معكم فى المحاضرة الأولى . وكنت بسبيب من استعراض نماذج من شعر الغزل ، أضربها مثلا لشعر الحالات النفسية ؛ ولكن الزمن لم يتسع إلا لعرض صور من الخفقة الأولى للحب فى قلوب بعض الشعراء المحدثين ، وكذلك لم يتسع لاستعراض السمات الأخرى فى الشعر الحديث .

فالليلة سأحدثكم عن بعض هذه السمات . وسيتناول الحديث سمة الصدق فى بواعث القول وفى صور التعبير عن هذه البواعث ؛ وسمة الاتساع والعمق فى طبيعة المدرسة الحديثة وتعدد الآفاق وسنرى معا نماذج متنوعة من شعر الغزل فى حالات الحب المتنوعة تثبت ذلك الصدق من ناحية ، وتثبت غنى طبائع الشعراء المحدثين ووفرة صور الحياة فيها من ناحية أخرى . وإذا اتسع الوقت فسنتحدث عن شبهة أثارها أحد الزملاء الأفاضل فى نهاية المحاضرة الأولى عن « الأسلوب » عند المدرسة الحديثة ، وإلا فسأطلب إليكم الحضور هنا كرة ثالثة للحديث المسهب عن هذه الشبهة المزعومة .

***

الصدق فى بواعث القول وفى صور التعبير :

ما الذى يبعث الشاعر على القول ؟ وما الذى يسعفه بالتعبير عن هذا الباعث ، تعبيرا يرى فى ألفاظه ورنينه صورة أخرى مما يحس فى ضميره ؟

كانت العرب تدّعى هذا الباعث شيطانا يلهم الخاطر بالإحساس ، ويسعف الشاعر بالتعبير ! . وكانت اليونان تتخيل آلهة للفنون ، توحي لأهل الفن بالشعور ، وتلهمهم طرائق التصوير !

وجاء العصر الحديث بالعلم الحديث . وكان هذا العلم إلى أوائل هذا القرن ـ وربما إلى هذه اللحظة ـ لا يطيق الفهم إلا على أساس من المادة ، وعن طريق المعمل والتجربة ، أو الفكرة الجافة المجردة : فزعم أن العقل الباطن وما كمن فيه من أحاسيس ، والغرائز وما تشعه من تصورات ، هي مبعث الشعر والفن جميعا . وهي المسعفة كذلك بوسائل التعبير من رصيدها المخزون ، ورموزها الغامضة في اللاشعور .

والمدرسة الحديثة ، تحترم العلم الحديث ، ولكنها لا تحبس نفسها في حدوده الضيقة ؛ وتهش للخرافة القديمة ، ولكنها لا تأخذها مأخذ العقيدة . فهي تفهم بواعث الشعر وبواعث الفنون كلها ، رغبة كامنة بنفس الفنان في أن يحس بالحياة والطبيعة في منابعهما الأولى ، وأن يترجم ما يحسه ترجمة جميلة ؛ وأن يجسم ويبرز خواطر غامضة في حسه عن الكون الكبير المتسرب في غيابات الأبد ومجاهل الأزل ، أو واضحة متبلورة في شعوره عن استجابات نفسه في معترك الحياة وفي مجالي الكون والطبيعة ؛ وأن يصور كذلك أشواق النفس الإنسانية وأشواق الحياة كلها إلى المجهول وإلى الآفاق الموموقة التي يحجبها الزمان والمكان والحدود الدنيوية الملموسة .

ويصغر الشاعر أو يكبر بمقدار ما تتسرب نفسه المحدودة في نفس الكون الطليقة ؛ وبمقدار ما يترجم شعوره عن الرغبات الكامنة والأشواق المجهولة في الإنسانية جميعا ؛ وبمقدار ما يفيض من الحياة على كل ما تلمسه عصاه السحرية فيسلكه في نهر الحياة الكبير ، ويحيله قلبا خافقا وروحا مرفرفا ، متصلا بالحياة الخالدة بعد أن كان جزءا منفصلا محدودا بحدود الزمان والمكان .

وقد يحسن في هذا الموضع أن أضرب مثالا لهذا الإجمال :

ترين على الشاعر في بعض الأحيان غاشية من السأم ، وتغمره موجة من الملال ؛ وقد يتسع مدى هذا الاحساس في نفسه فتشيع في ضميره شكوك

غامضة فى الحياة وفى أغراضها ومصائرها ؛ وقد تعظم هذه الشكوك ، وتعمق هذه الغواشى حتى يرى الحياة نفسها تسأم وجودها ، وتشك فى أهدافها .....

تلك خطوات ثلاث للإحساس : الأولى ضيقة محدودة ، والثانية متسعة شاملة ، ولكن الثالثة عميقة موغلة فى ضمائر الحياة . ولهذه المرتبة مثال فى شعر الشبان المحدثين هو ذاك بعنوان « فى الصحراء » :

« فى ليلة من ليالى الخريف المقمرة ، الراكدة الهواء ، المحتبسة الأنفاس ، وفى صحراء جبل المقطم الموحشة ، وبين هذا القفر الصامت الأبيد - كانت تتراءى نخلات ساكنات فى وجوم كئيب من بينها نخلتان : إحداهما طويلة سامقة ، والأخرى قصيرة قمئة .... بين هاتين النخلتين دار حديث وكانت بينهما همسات ومناجاة :

الصغيرة :

مالنا فى ذلك القفر هنا   مابرحنا منذ حين شاخصات ؟
كل شىء صامت من حولنا   وأرانا نحن أيضا صامتات !

تطلع الشمس علينا وتغيب
ويطل الليل كالشيخ الكئيب
والنجوم الزهر تغدو وتئوب

وهجير وأصيل   وطلوع وأفول   ثم نبقى فى ذهول
ساهمات !

٭٭٭

أفلا تدرين يا أختى الكبيرة   ما الذى أطلعنا بين اليباب ؟
أيما إثم جنينا أو جريرة   سلكتنا فى تجاويف العذاب ؟

قد سئمت اللبث فى هذا المكان
لبثة المصلوب فى صلب الزمان
أفما آن لتبديل ... أوان؟
حدثيني لم نشق حدثيني كم سنلق حدثيني كم سنبقى
واقفات ؟

الكبيرة

أنا يا أختاه لا أدرى الجواب ودفين السر لم يكشف لنا
منذ ماأطلعت فى هذا الخراب وأنا أسأل : ماشأنى هنا؟
فيجب الصمت حولى بالسكون
وأنا أخبط فى وادى الظنون
لست أدرى حكمة الدهر الضنين
غير أ نا حائرات والليالى العابثات تتجنى ساخرات
لاهيات!

٭٭٭

ربما كنا أسيرات القـــدر تسخر الأيام منا والليالى
تضرب الأمثال فينا والعبر وإذا نشكو أذاها لاتبالى
ربما كنا مساحير الزمن
قد مسخنا هـكذا بين القنن
فى ارتقاب الساحر الحبي الفطن
فإذا كان يعود فك هاتيك القيود فرجعنا للوجود
طافرات !

٭٭٭

أو ترانا نسل أرباب قدامى   قد جفاها وتولى العابدون
جفت الكأس لديها والندامى   غادروا ندوتها تنعى القرون

أو ترانا مسخ شيطان رجيم
صاغنا فى ذلك القفر الغشوم
وتولى هاربا خوف الرجوم

فبقينا فى العراء   يحتوينا كل راء   وسنبقى فى جفاء
شاردات ؟

***

لست أدرى : كل شىء قد يكون   فتلقى كل شىء فى سكون
وإذا ماغالنا غول المنون   فهنا يغمرنا فيض اليقين

***

ثم ساد الصمت كالطيف الحزين
وتسممت لأقدام السنين
وهى تخطو خطوة الشيخ الرزين
هامسات فى الرمال   منشدات فى جلال   كل شىء للزوال
والشتات .

***

ومثال آخر فى بيت واحد من أبيات ابن الرومى عن الأرض فى الربيع هو الذى يقول فيه :

تبرجت بعد حياء وخفر   تبرج الأنثى تصدت للذكر

فهذا الشاعر تجاوز حسه بالربيع مظاهره كلها ، ولمس مباشرة قلب الطبيعة الحية ، وموضع الخصوبة الأزلية التى يمسها الربيع فتتبرج الأرض له ، لاتبرج الزينة الظاهرة ، ولكن تبرج الأنوثة للذكورة . وجمع فى هذا البيت الفرد خلاصة مابثه الربيع فى القوى الحيوية جميعا ، وخلاصة أغراض الحياة

الأولى منه ، فوق ما به من جمال فنى فى الصورة الحية التى يرسمها للأرض ، فيمنحها الروح والحركة والقصد فى تعبير سريع .

ومثال ثالث يمدنا به شاعرنا العجيب المجهول « محمد على » فى أبيات بعنوان : « إنى أحبك أيها الدنيا » فقد أحس بروح الحياة تنسرب فى العشب والماء والشجر والضياء والهواء والليل والنجوم والجمال ، وشعر أن روحه متصلة بروح الحياة فى هذه المجالى فهتف هتفته : « إنى أحبك أيها الدنيا » وإليكم أبياته :

إنى شعرت بروحك انطلقت فى العشب والأمواه والشجر
فكأنما عينى تطل على نبع يفيض الآن بالصور

***

هذا مثل من الاتصال القوى بين نفس الفنان والنفس الكبرى المتغلغلة فى الكون . فإليكم مثالا آخر من صدق الإحساس بخوالج النفس الإنسانية ممثلة فى عاطفة أساسية كعاطفة الحب ، حيث لمس شكسبير فى قصيدة على لسان فينوس إلهة الجمال تندب حبيبها أدونيس وقد صرعه الخنزير الوحشى ففجعت فى حبها وثارت غيرتها من الحب فجعلته لعنة وعذابا على مافيه من لذة ومتاع

فى هذه القصيدة التى نقلها إلى العربية الشاعر الكبير الأستاذ العقاد ، صورة صادقة للحب مجردا عن المحبين. الحب كعاطفة إنسانية أساسية خالدة ، تتخطى الزمان والمكان وما يخلعانه عليها من شيات ثانوية ، إلى السمات الدائمة الخالدة التى تبدو فى كل حب يقع فى هذا الوجود . والقصيدة طويلة نجتزىء منها بأبيات :

ألا أيهذا الحب إنك بعده ستصبح داء فى الجوانح مسقما
ستصبح أنى سرت ترعاك غيرة بعين تريك الوهم صدقا مجسما
وإنك إما عن مرامك قاصر فتأسف . أو مجتازه متهجما

عذابك بالصفو الذى فيك راجح وماؤك ممزوج به الرى والظما
بلى سوف تغدو أيها الحب كاذبا لجوجا ملولا جافيا متبرما
يطير بعطفيك النسيم إذا سرى وترمى بك الأنفاس فى كل مرتمى
وتنفخ فى روع العى فينبرى فصيحا ويغدو مدره القوم أبكما
وياحب تعفو عن كبائر جمة وتضطغن الذنب اليسير تجرما
وياحب تضرى من يدب على العصا فيضرى . وتنهى الضارى المقتحما
وتبتز أموال الغنى وربمـــا منحت كنوز المال من كان معدما
وقد يحلم الفتيان فى ميعة الصبا ويسفه فيك الشيخ إن بات مغرما
هيوبا ولاشىء يهاب لقاؤه عسوفا إذا ما الخوف قد كان أحزما
وترحم أحيانا وفيك قساوة وأنت بأن تقسو جدير وترحما
وأخدع شىء أنت إن قيل منصف وأصعب شىء أنت إن قيل أسلما
وإن شئت أزجيت الجبان فأقدما ووسوست فى قلب الجرىء تأحجما
ألا أيها الحب الغوى : ألا انطلق على الناس سيلا جارفا أو جهنما
ألا ولتفرق والدا عن وليده فلا أم تحنو إن قسوت ولا ابنما
وكم فتنة ياحب تورى ضرامها وترسلها شعواء فى الأرض والسما
ألا وليكن أشقى الأنام بحبه أحق امرىء فيه بأن يتنعما

تلك هى طبيعة الحب فى ذاتها من وراء الأجيال والآباد ، وتلك سماته الصادقة فى كل حادث حب مجردا من الجزئيات والأشكال التى تتحقق أو تتخلف ، ولا تغير شيئا من السمات الأصيلة . والحديث عن الصدق العميق فى هذه القطعة يستغرق الوقت كله ، على أن من خبر الحب أو لاحظه ملاحظة بصيرة فى سواه لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، فنى هذه المقطوعة كل الخطوط الأولى التى ترسم صورة الحب البشرى وليس وراءها إلا المتفصلات والألوان.

ويجلس توماس هاردى فى ساعة الخسوف ، فيلحظ ظل الأرض على

وجه القمر دائرة صغيرة ، فإذا بهذا المنظر يثير فى نفسه الساخرة أعمق أحاسيس السخرية الهادئة الواجمة ، وينفذ من هذه الظاهرة الفلكية إلى الاعماق الكونية والإنسانية ، وإذا به يقول :

« ظلك — أيتها الأرض — من القطب إلى المحيط ، يدب الآن على شعاع القمر الضئيل ، فى سواد لاشية فيه ، وسكينة لايخالجها اضطراب ، وإنى لأنظر إليه فأعجب : كيف يستوى هذا الظل المنسوق وذلك الجرم الذى أعرفه لك مؤارا بالقلق والحيرة ؟ وكيف تتفق هذه الصفحة الراضية كأنها الطلعة الإلهية وأقطار عليك أيتها الأرض تموج الساعة بالأحزان والكروب » ؟

« وأسأل : أهذا الشبح الصغير هو كل مايطرحه الفناء الزاخر من الظلال على ساحة الفضاء ؟ حكمة الله أراد بها عوالم الإنسان متجمعة كلها فى حيز هذا القوس المرسوم . كذلك يكون مقياس الكواكب لماتبديه الأرض ويكشفه عليها الزمان . من أمة تنحر أمة ، ورءوس تغلى بالهواجس وأبطال غالبين ونساء أجمل من طلعة السماء » .

فالشاعر هنا لم يقف عند الظواهر والأشكال التى تؤلمها ظاهرة الخسوف ولكنه نفذ إلى إحساس نادر عميق بالفرق بين صخب الأرض وضجيجها وبين ظلها الساكن على وجه القمر ، وسخر من ضآلة مايتركه عالم الفناء الأرضى من الآثار فى عالم الأفلاك ، التى لاتحس بأرضنا ومافيها إلا بمقدار ماترتسم دائرة ساكنة صغيرة على شعاع القمر الضئيل .

إنى لمستك فى الضياء وفى ... همس الهواء وبين أفكارى
وبنشوة الروحين حين سرى ... مابينهن نجاء أسرار

ooo

وبهدأة الليل المديد إذا ... هبطت فلم ندرك لها أمدا
إلا صدى للنجم منبعثا ... قد زاد عمق سكونها مددا

إنى أحبك فى الجمال إذا   طافت رؤاه جديدة أبدا
أبدا تحس النفس أن له   مددا وراء الكون مطردا

***

لقد التقت نفسى بنفسك فى   دنيا الخيال وعالم الذكرى
فأفضت نور الحب ملء دمى   ثم انطلقت أمامه صورا

***

فإذا بحبك خالد أبدا   متغلغل إشعاعه بدمى
وإذا بصوت هاتف أبدا   من خلف أفراحى ومن ألمى

إنى أحبك أيهـــا الدنيـــا

هذا النسق العالى هو بعض مانعنى بالصدق فى الإحساس ، أى الصدق فى الاتصال بأعماق الحياة والطبيعة ، من وراء الحواجز والقيود ، والتعبير عن أغراضها الأصيلة المنبثة فى الجزئيات والمفردات ، ومجاوزة السطوح والظواهر إلى الأغوار والأعماق ، وتصوير الوشائج الأصيلة بين الإحساس الفردى فى نفس الشاعر والإحساس الكونى فى ضمير الحياة . أو الصدق فى التعبير عن عاطفة نفسه السابقة شاملة من وراء الأفراد والزمان والمكان وفيما سبق مصداق هذا الذى نقول .

على أن هناك صدقا آخر تعنيه المدرسة الحديثة كذلك ، وإن كان مطلوبا فى عالم الأخلاق قبل أن يكون مطلوبا فى عالم الفنون . تطلبه من حيث أنها تعنى بتصحيح معايير النفوس كما تعنى بتصحيح معايير الفنون ، ومن حيث أنها ترى الفن عبادة صادقة ، لاتصدر إلا عن طبيعة صادقة . ذلك هو صدق الباعث على القول ، وصدق التعبير عن هذا الباعث كذلك .

منذ أسابيع حضر إلىّ أحد الزملاء المتخرجين فى دار العلوم يطلب منى الاشتراك بقصيدة فى عدد خاص من جريدة السياسة الأسبوعية بفقيد الوطن

الكريم محمد محمود . فقلت له : إننى أستطيع الاشتراك فى هذا العدد بمقالة ، ولكنى لاأستطيع الاشتراك بقصيدة . ذلك أن علاقتى بالفقيد هى علاقة المتابع لسيرته لا المتصل بحياته ، وهذه العلاقة تثير فى نفسى الملاحظة والدراسة ، ولكنها لاتثير الانفعال والحماسة . فالمقالة هنا هى التى تصور حقيقة شعورى ، أما القصيدة فتزوير على هــذا الشعر ، لا أرضاه لنفسى ولا للفقيد الكريم .

هكذا تتنطس المدرسة الحديثة وتتحرج وهى تطوف حول قدس الشعر الرهيب ، وبجانبها جماعة من النظامين لايكفون عن القول فى كل ماهب ودب ، وفيما تنفعل له نفوسهم ومالا تنفعل ، وفى المناسبات اليومية التافهة والأغراض الصغيرة المحدودة . ومن البلية أن بعض من يفعلون ذلك ، يحسبون على الشعراء فى وقت تنقصهم الإنسانية العادية .

فنى غداة وفاة محمد محمود قرأت ثلاث قصائد لثلاثة من الشعراء . . . فأما أحدهم الأستاذ محمود حسن اسماعيل فقد كان له من الصلة بالفقيد ما يجعله خليقا أن يقول ماقال ، بل خيرا مما قال . لولا أنه يخلص لطريقته فى التعبير أكثر من إخلاصه لما يهجس بنفسه من شعور .

وأما الآخران فلا يعنيهما من الرجل إلا أنه مات . فذلك خير ما فيه بالقياس إليهما وأفضل ماقدم لهما من الخدمات . إذا أتاح لهما الفرصة المناسبة لرثائه ونشر هذا الرثاء فى صحيفة كبرى كالأهرام !

بل أنا أعلم حادثة بالذات عن أحدهما كانت خليقة أن تعدل به عن التفكير فى رثاء هذا الرجل بالذات ، فلقد كان يزور المنصورة وإذا بهذا الشاعر يريد أن يتقدم فيلقى بين يديه قصيدة ، وكان من قبل قد استقبل صدقى باشا كما استقبل النحاس باشا فى نفس المكان ، وبنفس المعانى التى أعدها لمحمد محمود ، فما كان من الرجل إلا أن قال فى لهجته المشمئزة المتعالية : « دا بتاع صدقى

بتاع كل رئيس وزارة . لا لا » !

وفجع صاحبنا فى قصيدته . حتى إذا مات محمد محمود ولم يعد يملك إسكاته قال قصيدة الرثاء فى غفلة من الأحياء .

هذا هو الذى تحاربه المدرسة الحديثة لأنها تكره للشعر هذا الهوان كما تكره له التزوير والبهتان .

ونحن لا نقف بالصدق عند حد الإحساس ببواعث القول ، فنحن نطلبه كذلك فى صور التعبير نطلب أن يكون التعبير مساويا للإحساس ، وأن تكون الصورة مشابهة للباعث وفى قوته . بلا كذب ولا مبالغة ولا تمويه .

فالتعبير رموز ظاهرة لمعان وأحاسيس مضمرة ، وقيمتها مستمدة من قيمة ما ترمز إليه . وهى فى هذا كالعملة الورقية المضمونة برصيد من الذهب : قيمتها هى فى ذاتها زهيدة ، ولكنا نتعامل بها حسبما ترمز إليه من الرصيد المكنوز وراءها . ذلك الرصيد الذى لا تساوى هى بدونه شيئا . فكل زيادة فيها لا تقابلها زيادة فى رصيدها تعد تضخما فى التعبير عند العرف الفنى . كالتضخم فى النقد عند العرف الاقتصادى ، وهذا التضخم يرخص من قيمة التعبير كما يرخص التضخم من قيمة النقود سواء بسواء .

ومن هنا تخرج المدرسة الحديثة صورا صادقة معينة مقصودة فى شعر الرثاء والمدح والهجاء (وتلك أبواب من الشعر لا تنكرها المدرسة الحديثة لذاتها كما يتوهم المقلدون لها دون فهم لرسالتها) وفى شعر الغزل والطبيعة وشعر الحالات النفسية جميعا . صورا مفصلة على قد الحالة التى بعثتها ، لا كتلك الصور الجاهزة التى لا تجىء على قد أحد فيما يخرجه شعراء المدرسة القديمة فى هذا الزمان .

ويبلغ من الحرص على الصدق، عند الشعراء المحدثين ، أن ترى سيماهم فى قصائدهم ، وأن تستعيض بهذه القصائد عنهم ، وأن يكون الديوان هو

« اعترافات » صاحبه التى قد يخفى أسرارها فى حياته فتفضحها أشعاره .

وإليكم من هذا قصيدة بعنوان « حنين » لفايد العمروسى . هى صورة أخرى من فايد يستطيع من لم يره ومن لم يعرفه ، أن يلمح فيها سحنته وأن يرى فيها سريرته فى لحظة من لحظات حياته ، طالعته الحياة فيها بدنيا يهواها ويهفو إليها ، ولكنه يرى بينه وبينها حواجز لايستطاع تخطيها ، فيلمح هذه الدنيا خيالا فى ضميره ، لاتمسكه يداه ، ولا تبصره عيناه. هذه الدنيا التى أعرضت عنه فى شبابه وأقبلت فى لحظة من لحظات « كهولته » كما يريد أن يتصور . وفى خلال ذلك يجلو لنا صورة مما يختلج فى ضميره ويعترف لنا اعترافا خطيرا فى البيتين الأخيرين .

أحن إلى الدنيا التى فى خواطرى معطرة الأحلام ريّا المناظر
أحن إليها مثلما حن طائر شجى ، إلى إلف من الطير نافر
أحن إليها وهى تنأى بعيدة على أنها ملموسة فى سرائرى
تطالعنى خلف الغيوب فتنجلى لحسى ولكن لاتراها نواظرى
أطلت بقلبى من خلال غيومه فأصغى وحياها تحية شاعر

٭٭٭

أحن إلى الدنيا التى طال فقدها بماض أليم من حياتى عاثر
فيالك من ماض قطعت ظلامه أضمد مابى من جروح غوائر
فقدت على ضوء الشباب مناصرى
وأبصرت فى ظل الكهولة ناصرى !
فهاتوا لى الدنيا فقد ضاع عمرها وعمرى . وماذا بعد عمر مغادر؟
نسجت كيان العيش من ذوب مهجتى
ورمت هدوء الصبر رغم معاذرى
على أننى ما كنت أحتمل الأسى عفيفا ولكن غارقا فى جرائرى
جرائر من يعدو من النار يكتوى حشاه ، فينديه بنشوة فاجر !

وشاعر آخر سمعتم اسمه كثيرا منذ ثمانى سنوات ، ثم توارى فترة من العمر هو « على عبد العظيم » . وقد عثرت أخيرا على بعض مخبآته ومن بينها صورة صادرة عن نفسه فى لحظة من لحظاتها سماها « نشوة » تكاد تصور لى هـــذه اللحظة صورة ملموسة فإليكم أبياتا منها :

توقد إحساسى ورقت خواطرى ورفت كأنفاس النسيم مشاعرى
وغرد قلبى فى الضلوع كأنما ترنم فى أحنائه ألف شاعر
وشف أمامى الكون حتى تفتحت لعينى منه مبهمات السرائر
فأبصرت فيه عالما غير عالمى فسيحا كأحلامى طليقا كخاطرى
تقابل فيه الشرق بالغرب والتقى بساحته ماض وآت بحاضر
ففى كل واد منه رنة ساجع وفى كل ناد منه صرحة زامر
وفى كل ضوء نفحة من سلافة وفى كل زهر نبضة من مزاهر
تراقصت الآمال فى جنباته وهامت على لج من الضوء باهر
نسيت بها نفسى فأصبحت هائما أحلق فى روض من الفن عاطر
وأرشف أكواب النسيم إذا سرى وألثم أضواء النجوم الزواهر
وأسمع أنغام الحياة فأنتشى وأحلم فيها بالمنى والبشائر
وأصغى إلى الأدواح فى سرحاتها وأفقه فى الأكمام همس الأزاهر
كأنى فوق الكون كون تأنقت يد الله فى ترقيشه للنواظر

والآن نتبع « عبد العزيز عتيق » فى حالات نفسية متتابعة ، فنراه يرسم لنا نفسه فى كل حالة ، ويرتفع نبضه كلما ارتفعت حرارة موقفه ، ونرى عبد العزيز الوديع الشفوف حين يرضى وحين يعتب ، وحين يخشى الفجيعة وحين ييئس وينسحب من الميدان :

ففى قصيدة سماها « وحى لقاء » يقول :

يامعين الإلهام ياجذل الرو ح وياهدأة الفؤاد الخفوق

أنا فى معبد الوجود أصـــلى ... لك فى نشوة المحب المشوق
ذائبا كالحنين فى الشفة الظمأى ... وكالحكم فى الخيال المفيق
أبدا أنت شاغلى وجليسى ... ونجيى وصاحبى فى الطريق
ومعى أنت فى الهجوع وفى الصـــحو وفى زحمة الورى والسوق
فى المروج الخضراء رف نداها ... فى النخيل المتوج الممشوق
فى دياجى الحياة فى غيمة النفس ... وفى هيجة الأسى المخفوق
كلما سرت تخطرين أمامى ... فى رداء من الخيال الطليق
فى مراد الخيال فى سبحة الرو ... ح وفى كل هين أو دقيق

وفى قصيدة سماها «عاصفة» يقول:

يابشير النور يافجر حيـــاتى ... ياربيعا خالدا فى دنياتى
لم أوغلت – على مابيننا – ... فى محيط الصمت بين الظلمات؟
لم أرسلت يـــدى فارغة ... من عطاياك؟ أما أجدت صلاتى؟
لم يا أنس ليـــالىّ ، ويا ... سلوة الأيام تمحو كلماتى ؟

***

كنت لى ظلا على الارض وريفا ... كنت لى معنى سماويا لطيفا
كنت لى سحراً يغشى هيكلى ... وربيعا شاعريا لاخريفا !
كنتُ مرهوبا بما ألبستنى ... من معانيك ووضاء شفيفا
ثم مات الظل والسحر معا ... بين كفيك فأمسيتُ مخيفا

***

جدث يمشى وقد ضم على ... أمل عاثت به أيدى البلى
وغـــلاف ظاهرى لفتى ... كان بالأمس طموحا للعلا
وبقايا من خيـــال عابر ... سكن الدنيا فضاقت منزلا
أتراه الآن؟ لن تبصره ... حينما تلقاه إلا هيكلا !

وفى قصيدة بعنوان « بقية لم تسمعيها » يقول :

مالى يطيف بى الظلام أنا الذى بالأمس أبصرت الضياء مطوقى ؟
مالى أحلق فى مداه وأنتهى بجراح مطعون الفؤاد ممزق ؟
مالى على الأمواج أسلم قدرتى وإلى ضفاف الوهم أدفع زورقى ؟
والام تجنح للذبول خواطرى وإلى الجفاف يصير فيض تدفقى ؟
لله آمال زحمت بهـــا الورى واليوم أسلمها للحد ضيق !

***

ياباعث الأشواك فى روض المنى ومفرق الأحـــلام أى تفرق
زعموك تعبث بالقلوب كريمة لـكننى مازلت غير مصدق !
مازلت أطمع أن ترد كآبتى وتعيد إشراقى وروعة منطقى
مازلت أطمع أن أراك بجانبي كالأمس تمنحنى الرضاء فنلتقى
أتعود للوكر القديم فيكتسى إما درجت به عذوبة رونق ؟
أتعود ؛ قل : إنى أعود ، فربما تشفى بعودك كل معنى مقلق !

حتى إذا استيأس وهم بمارقة هيكله ، لم يرحل حتى يلقى نظرة أخيرة فى قصيدة سماها الخروج . جاء فيها :

رويدك ما هذه الحشرجا ت؟وما هذه الصور الفاجعة ؟
أهذى ليـــالىّ ؛ ماشأنها؟ وأين سياحاتها الرائعة ؟
وهذى ؟ أأفراحنا فى اللقا ء؟فكيف تطالعنى جازعة ؟
وما للطموح وما للحنيـ ن وما للمنى هكذا قابعة ؟
قوىً للفناء عدو الحياة ومطفىء أنجمها اللامعة !

يابقايا الأحـــلام والآمال
يا أناشـــيد عزلتى وابتهالى
لاتعدى على وزر ارتحـــالى
شهد الله لم يكن باختيارى !

وهكذا حين يصدق الشاعر فى تعبيره ، يمنحنا صورة مسطورة من شعوره، والصدق بهذا المعنى الأخير هو أول معالم الطريق بين الشاعر والمشعوذ ، وهو الحد الأول الذى لايباح تخطيه إلى عالم الشعر إلا لمن يثبت توافره فى نفسه ، وكمونه فى حسه ، ثم يسير الشعراء بعد ذلك فى هذا العالم الفسيح : كل على هواه حر طليق .

***

أنماط الغزل فى شعر المدرسة الحديثة :

الإحساس الساذج الفطرى بالحب ، قريب فى منبته من إحساس الجوع والظمأ ، ومطلب قريب لايعلو كثيرا على مطالب الجسد ، والمتعة فيه غذاء من أغذية الدم واللحم ؛ والحرمان نوع من الطوى والخمص ، والآلام لون من وخز الجلد ولذع النار ولفحة السموم . والتعبير عن ذلك كله شبيه بالضحكة والصرخة والآهة والأنين ، من أنواع التعبير الفطرى عن اللذة والألم .

وليس هذا هو الحب الذى يحسب فى عالم الفنون ، فالفن نضج فى الحياة وفى الشعور ، وسمو فى التصوير وفى التعبير ، ولن يكون الشاعر ـ فى الغزل ـ فنانا ، إلا أن يكون له فى حبه منحى خاص ، وفلسفة شاملة تجعل من هذا الحب مجتمعا للأحاسيس الفريدة بأعماق الحياة وأصولها ، وتتصل بوشائج الطبيعة الكبرى وغاياتها البعيدة .

فالحب ليس إحساسا فى نفس فرد ولكنه فورة وقوة فى نفس كون ، ودفعة ومضطرب فى ضمير دنيا ، وحياة وحركة فى قلب وجود . وليس هو مصادفة عابرة ، ولا فلتة غير مقصودة ؛ ولكنه نظام وقصد تهيئهما الحياة لبلوغ مآرب وغايات ، ولتحقيق آمال وخيالات ، وللوثوب بالنوع فى طريق الرقى والكمال . درجات درجات .

وشعر المدرسة الحديثه فى الغزل يصور لنا سمة العمق والاتساع وتعدد الآفاق ويخلف لنا متحفا حيا من الصور والحالات النفسية، تتميز فيها كل صورة عن كل صورة وكل حالة عن كل حالة؛ فالشاعر الحديث إنما يعنى بالصدق فى التعبير عما يحس، قبل أن يعنى باحتذاء القوالب المألوفة فى الغزل القديم أو الجديد. ومن هنا نطلع على صورة فنية لكل امرأة يحبها تختلف عن صورة أية امرأة أخرى، ونرى له صورة جديدة فى كل حالة من حالات نفسه وحالات نفسها؛ نلمح شخوصا للحظات والأيام، تتنفس وتحيا، ونسمع نغمات وأصداء متعددة الألوان تبعثها نفوس متعددة الأوتار.

هى دنيا عجيبة نعيش فيها فنلتقى بشتى الوجوه وشتى الشخصيات، ونجد فيها نفوسا هادئة وثائرة، راضية وساخطة، بانية وهادمة، محلقة فى الرجاء وجاثية فى القنوط. ونجدها روحانية ترفرف بأجنحة الى السماء تارة، وبوهيمية توغل فى الواقع تارة، وكثيرا ما تجمع بين الأرض والسماء فى نظام.

ولكن الميزة الأولى لهذه النفوس: أنها تبدىء صادقة فى كل حالة، طبيعية فى كل وجه، أصيلة فى كل سحنة؛ وذلك دليل تفتحها لألوان الأحاسيس، وكثرة الأوتار المرنة بهافى العاطفة الواحدة، والعواطف المتعددة، ومطاوعتها لما تتأثر به، لا لما تحفظه وتحتذيه.

وقد كان النقد العربى — إلى أمد قريب — قد وضع للعواطف مراسم وقيودا، ولفنون الشعر قوالب وأنماطا. فمن رثى فعليه كذا وكذا، ومن مدح فليكن كيت وكيت، ومن تغزل فليقل كما قال فلان ... إلى آخر هذه القيود.

ترى هذا فى كتاب «الصناعتين مثلا، وتراه فى الكتب المدرسية والمذكرات وتلمح أثره فى كتابات من يتصدون للنقد وكل أدواتهم مادرسوه فى الكتب القديمة».

أما المدرسة الحديثة فقد تخلصت من هذه القيود كلها، وانطلقت لسجيتها

وفطرتها . وهذه هى رسالتها : الحرية المطلقة فى الاتجاه الفنى ؛ والشخصية المتميزة فى مواجهة الحياة .

والآن إلى بعض النماذج نرى فيها مصداقا لبعض سمات الغزل عند المدرسة الحديثة على سبيل المثال ، لا على سبيل الاستقراء .

الحب رفعة للنفس وامتداد فى العمر بهذه الرفعة . ولحظاته تكشف للنفس آفاقا خالدة كالسموات الوسيعة تبدو من خلال الحلقات الصغيرة . والآباد البعيدة تتجلى من كوى محدودة وربما امتلأت كأس الحياة بأعذب الشراب من قطيرات زمان يتيحها الحب الوهاب . كما يقول العقاد :

لحظة ترفع عمرى حقبا متصـــلات
رب عمر طال بالر فعـة لا بالسنوات
لحظة لا بل خلود لاح بين اللحظات
كالسموات تراهـا ، من شباك الحلقات
رب آباد تجلت من كوى مختلفات
وقطـــيرات زمان ملأت كأس حياة

والحب يجعل للحياة طعما جديدا ويمنحها معنى جديدا . ويضاعف الإحساس بالجمال فى مجالى الكون والطبيعة وفى الأحاسيس والمعانى ، كما يقول فى قطعة أخرى بعنوان « معنى جديد » :

قد شهدت الزمان فى كل وجه وبلوت الحياة فى كل معنى
وختمت الدنيا فما من قديم كان إلا يعاد وصفا ولونا
فإذا الحياة معنى جـــديد لم نجده من قبل أو لم يجدنا
ذاك معناك أنت حين وهبت الـ قلب نورا من طلعة الشمس أسنى
ومنحت الحب الإلهى حبا وكسوت الحسن السماوى حسنا

والحب يجدد الأحاسيس ، ويذكى الحياة ويصنع المعجزات كما يقول أحد

الشبان من أبناء دار العلوم :

أفى كل لقيا شعور جديد وفى كل قرب ظماء يزيد
وفى كل يوم أرى عالما من الحب ينسبنا للخلود
وألفاك والكون قفر جدب فتنبض فيه المنى والورود
ويخفق بالحب قلب الحياة وتشدو هواتفها بالنشيد
كأن الحياة وآمالها إذا مالقيتك خلق جديد
هو الحب لا القدر المستعز يقسم فى الكون شتى الجدود
ويمنع فالكون شاك شقىّ ويمنح فالكون راض سعيد
وينبض فالكون فى نشوة ويخمد فالكون جاث بليد

***

لقيتك خفاقة كالرجاء فذكرتنى أننى بعد حىّ
وجاش بنفسى شعور الحياة وفتحتنا فى رجفة مقلتىّ
أقلب عينى بهـــذا الوجود وترتاد روحىَ منه الخفىّ
فياللجمال . ويااللغنـاء ويااللخواطر تهفو إلىّ
ويالى من ظامىء لاهف ويالى من عاشق عبقرىّ
يحيل الحياة إلى فتنة وأصـــداءها لنشيد شجى
ويطرب بالشعر قلب الحياة وينفحها بالرضا القدسى
وما أنت إلا رسول الحياة وحبك معجزة من نبىّ

ليس فى هذا الغزل خدوه ولا ورود ولا قدود ، وليس فيه كذلك آهات ولا دموع ، ولكنه إحساس لدنىّ بالحب الذى يرفع الحياة ويجملها ويجددها ويجعلها شيئا ذا قيمة ، ويحيل هذه الفانية خلودا أو كالخلود .

وقد يذكر الغزل الحديث الخدود والقدود ، ولكنه يرسمها بريشة فنان ،

لابحس حيوان . كما يقول شاعر شاب من أبناء دار العلوم فى قصيدة سماها « فكرة جسم » .

أبسمى . أنت بسمة فى فم الكون والزمان
أشرقى . أنت يقظة تعمر القلب والجنان
أخطرى . أنت خطرة لم يصرح بها اللسان
ذلك الجسم فكرة تحتذى بعد فى الجنان
صاغه الكون محسنا وانثنى جم الافتتان

٭٭٭

ناهد مفصح مبين عن معانيه فى حياء
راحة النفس والعيون والأمانىّ والرجاء
جل مافيه من فتون عن هوى الميل والظماء
فيه من خبرة القرون تجارب الأرض والسماء
رق وانساب وانثنى رقة اللحن فى الكمان

« ٭ »

هـذه العين بسمة حلوة من فم الأمل
هى صحو وسكرة فى رؤى شارب ثمـل
هى نجوى وفكرة وتسابيح أو غزل
هى تقوى وفتنة حفها الزهو والخجل
يالعينيك من سنى فاض بالبشر والحنان

« ٭ »

ذلك الثغر يافتاه قبلة من فم غزل
رشفة العين من لماه تسكر الحب بالغزل
لثمـة منه بالشفاه تسكب البشر والجذل

يافمـــا تفصح الحياه فيه عن فكرة الأمل
ابتسم تشرق المنى فى ابتساماتك الحسان

٭٭٭

رقية الأرض للسماء أنت ياهـــذه الفتاه !
فرحة العين للضياء راحـــة القلب للصلاة
نشوة الروح للغناء لذة اللثم للشفاه
لهفة الشوق للقـــاء وثبة الكون للحياه
كيف قد جئت كوننا ؟ أنت للخلد والجنان ،

على أنه قد يهبط إلى الأرض ويوغل فى الواقع ثم يظل مع هذا مرتفعا بنوع إحساسه الأرضى الممتاز ونظرية الواقعية الخاصة كما صنع العوضى الوكيل فى قطعة سماها « فتاة منتصف الليل » كلها لهفة جسمية وحنين غريزى

تبيتين فى حضن من يافتاه ومن منك ينشق عرف الحياه؟
ومن ذا الذى أنت فى ملكه وتحويك فى جنح ليل يداه؟
وفى ملكه ومض تلك العيون وفى ملكه رف تلك الشفاه
وفى وسعه لثم هذا الجبين إذا ماتألفه فاشتهاه
لأحسبه فى غنى لاينال وملك الجمال ثراء وجاه

« » »

جلست إلى جانبي لحظة بعثت بها ثورة فى دمى
نعم . ثورة الجنس مكبوتة تزمجر زمجرة الضيغم
أكاد أمد إليها يدى وأوشك ألثمها فى الفم
وأوشك أرفع عنها النقاب ولـكنها همة المحجم
عرفنا السنى مانحا منعها فما لجمـــالك لم ينعم ؟

ثم أعرض عليكم حالة فريدة ، ولهذه الحالة قصة : فى الطريق كان الشاعر

« أحمد مخيمر » يلتقى صباح كل يوم بفتاة يخفق لها قلبه على غير معرفة، ويصوغ من الخيال قصة حب طويلة؛ وفى يوم من الأيام لم يلقها كعادته، ولكنه تخيل خطواتها فى هذا الطريق، حية شاخصة خطوة خطوة، ورأى المارة يدوسون فوق هذه الخطوات الحية، هذه الخطوات هى رجاء الخالدين فكيف تعلوها أقدام أهل الفناء، بلا تحرج ولا انتباه! إن الطريق الحى ليحتضر تحت هذه الأقدام:

فى كل صبح نلتقى هاهنا وتلتقى أعيننا فى الطريق
وفى الفؤاد نبتة للهوى تسقى بهذا الضوء عند الشروق

« « »

سوف أراها غدا دوحة لها بأرض النفس ظل ظليل
وتلتظى الدنيا فيأوى لها كل غريب عابر فى السبيل

« « »

فى كل يوم أنا أصحو على شوق جديد ورجاء جديد
يبث فى النفس حياة كما يبثها الصبح بهذا الوجود

« « »

فليت شعرى لم أحببت أن
أذهب وحدى اليوم تحت الظلال؟
أسأل عنك الدوح فى لهفة والدوح مثلى ماينى عن سؤال

« « »

أوزع العين هنا أو هنا وملء نفسى أمل فى اللقاء
وملء نفسى صورة حية لوجهك الهادىء مثل السماء

ooo

تراك أسرعت فلم يتفق لقاؤنا أم ذا سبيل طويل؟

يا ألف لهف. أوشكت أن ترى بداية الموت لهذا السبيل !

***

خطاك بالأمس هنا حية ألمحها محفوفة بالرغاب
يرف فيها زهر لم تزل تفوح منه نسمات عذاب

***

يرف فيها زهر لا يرى أوراقه مرتعشات سواى
أنا الذى أسمع للشمس إذ يشرق حولى ضوءها ألف ناى

***

تلك الخطا للخالدين الرجاء تدوسها أقدام أهل الفناء
يا ألف حب وحنان لها ندية أجفانها بالبكاء !

***

يا ابنة هذا النور عودى لها كم تسعد العودة قلب الغريب
أخشى على هذا الشروق الذى يرعى خطانا أن يكون المغيب

وللشاعر المجهول قطعة صوفية مستغرقة ، كأنه فيها أحد أولئك الصوفيين فى مشهد الغيب قالها تصويرا الحالة نفسه بعد نظرة هائمة غائبة فى عينى فتاته :

أطل فى عينيك حتى أرى نفسى قد غابت بواد بعيد
كأنها تعبر فى رحلة ليس لها أمد أو حدود

***

قد بعدت عنى طيوف الحياه ثم انطوت خلفى وراء الظلال
وبان من عينيك نور يرى يكشف لى عن عالم من جمال

***

وغابت الأصوات عن مسمعى خلفى كصوت الركب إذ يبتعد
ثم انطوت نفسى بأفراحها وشوقها خلف شعاب الأبد

حتى إذا ما انتبهت مقلتى كما صحا من حلمه الحالم
أحسست كونا آخرا خافيا يبدو لعينى وجهه الباسم

***

وزادت الزرقة بين السماء وزادت الفرحة بين الضياء
كأن نورا ثم فى خاطرى يجاوب النور الذى فى السماء

وإذا كنت قد اقتطفت معكم إلى هنا زهرات من روضة الحب الموفقة، فأرجو أن تعدوا نفوسكم معى لتحمل وخزات الأشواك الدامية، فى سلسلة من القصائد لشاعر واحد، تمثل نفسه فى مراحل مختلفة:

أولى هذه القصائد: «يوم الظنون»:

يوم الظنون صدعت فيك تجلدى ولقيت فيك الضيم مغلول اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالماء الذى أعددته للرى فى قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها حتى طغت فلقيت مالم أعهـد
نار الجحيم: إلىّ غير ذميمة وخذى إليك مصارعى فى مرقدى
حيران أنظر فى السماء وفى الثرى وأذوق طعم الموت غير مصرد
أروى وأظمأ: عذب ما أنا شارب فى حالتىّ نقيع سم الأسود
وأجيل فى الليل البهيم خواطرى لاشارق فيـه ولا من مسعد
وتعيد لى الذكرات سالف صبوتى شوهاء كاشرة كما لم أشهد
مسخت شمائلها وبدّل سمتها وبدت بوسم فى السعير مخلد
ياصبوة الأمس التى سعدت بها روحى. وليت شقيَّها لم يسعد
وعرفت منها وجه أصبح ناضر ورشفت منها ثغر ألعس أغيد
سومحت بل جوزيت. كيف وعيت لى زرق الأسنة فى الإهاب الأملد
أمسيت حربى فى الظلام وطالما حليّت لى وجه الظلام المربد

ورجعت أهرب من لقاك وطالما ألفيت عندك فى الشدائد مقصدى
ما كان من شىء يزيد تنعمى إلا يزيد اليوم فيك تلددى
أواه من أمسى ومن يومى معا والويل من طول التردد فى غدى
أهب الخلود كرامة لمبشرى أن ليس يومى فى العذاب بسرمد
وأبيع حظى فى الحياة بساعة أنسى بها عمرى كأن لم أولد
وأسوم مرعى العيش غير مزود وأرود روض الحب غير مقيد

حتى إذا انتهى من الظن القاتل الأليم ، وجد اليقين داميا كالظنون :

مضى الشك مذموما وما كان ماضيا فليتك تمسى عن يقينك راضيا
وجل عن التصديق أنك هاجر وأنك مهجور وأن لا تلاقيا
فلله ماذا حل بالقلب فارعوى وآمنت بالحق الذى كنت آبيا
وأمسيت تدرى أن للود غاية وأن زمانا سوف يلقاك خاليا
وعشت ترى حبا كحبك ينقضى وماخلته إلا يد الدهر باقيا
مضى غير مردود كأنك لم تكن بعينيك ترعاه وبالنفس فاديا

« ٥ »

ألا لاتذكرنى بصدق وددته على جنبات الغيب مازال خافيا
ألا لاتذكرنى يقينا شريته بأنفس مايغلو به الشك شاريا
لكذبت صدق الهجر لو أن موطنا من الشك يوما لم أثب منه خاويا
سل الصبح كم ماريته كلما بدا ولم يبد فيه ذلك الوجه حاليا
سل الليل كم جافيته كلما سجا ولم أرتقب فيه الحبيب الموافيا
سل النيل كم أنكرته كلما جرى ولم ألق فيه ذلك الحسن جاريا
سل الدار كم ناشدتها القرب راجيا وأرهفت فى أنحائها السمع صاغيا
ويخدعنى ما اعتدت من طول قربه فأحسبه عندى وقد بات نائيا
يريب فى صمتى ليالى لا يرى على خده منه نجيا مناغيا

وتطلبه كفى ليالى لاترى على خصره منه نطاقا مدانيا
وتطلبه منى جفون تعودت على البعد أن تلقاه فى الحى آتيا
ويسألنيه كل يوم وليلة فؤاد يراه حيثما كان رائيا
وكيف بنسيان الأليف الذى به تذكره الدنيا إذا راح ناسيا
تفقده فى كل شىء فما انثنى فآمن بعد اليأس بالبين عانيا
سل الروض مطلولا سل القفر صاديا سل النجم لماعا سل البدر ساريا
فإنك تدرى كيف صدقت باسما إذا بت تدرى كيف كذبت باكيا
وإنك لاتخشى ردى الموت بعض ما خشيت ردى الحق الذى لاح هاديا

وهكذا صار إلى اليقين بعد ماطرق كل باب من أبواب الشك فعاد منه خاويا، ولم يصر إليه مع هذا فى سهولة، ويسر، ولكنه أنكر الدنيا ومعالمها وأنكرته نفسه وجوارحه. وإذا هو بعد ذلك يتلفت فيرى التبدل العجيب بين أمسه ويومه. بين حبه وسلوانه. بين عالمين من عوالمه كأنه فى كل منهما شخص غير ذاك مختلف جدا. فيسجل هذا التبدل كله فى قصيدة «السلوة».

أذن السلو فماله لم يحمد ودنا الرجاء وما الرجاء بمسعدى
أعدوتُ أم شارفت غاية مقصدى ؟

برد الغليل اليوم وانطفأ الجوى وسلا الفؤاد فلا لقاء ولا نوى
وتبدد الشملان أى تبدد

قذفت بنا الأيام فى غمراتها ورمت بنا فى التيه من فلواتها
فردين لم يتلاقيا فى موعد

لا أنت أكرم من أحب ولا أنا سلواك دون الناس فى هذى الدن
تفـدين حى بالحياة وأفتدى

ما كنت أحسب أن أبيت عشية أبد الزمان ولا أراك نجية
تحت الظلام ولا أضيق بمرقدى

يأتى الأصيل ولانراقب وعده ويلى الظلام ولانحاذر سهده
وإذا انقضى يوم فليس إلى غد
وإذا رأيتك فى الطريق فعابر يجتاز عابرة ، وطرف ناظر
يرنو لناظرة تروح وتغتدى
عجب لغابرنا وحاضر أمرنا أكذا تمر بنا معالم عمرنا
وتزول ، حتى لادليل لمهتد ؟
هذه الشفاه فهل على بسماتها أثر يشف اليوم عن قبلاتها
فى ذلك الماضى الذى لم يبعد؟
هذى العيون فأين من نظراتها لمسات رحمتها ووحى هناتها
لم يبق من خبر ولا من مشهد
ذكرى تردد فى الحياة سقيمة وتعيش فى كنف الهوان يتيمة
وتمر ذاهبة كأن لم توجد

من شاء أن يعلم معنى الصدق فى بواعث القول ، وفى التعبير عن هذه البواعث ، ففى هذه الأمثلة مايوضح هذا المعنى ويجلوه . ومن شاء أن يعرف كيف يكون الغزل أنماطا فى شعر المدرسة الحديثة وكيف يكون الحب شيئا غير الجوع والظمأ ، ومعنى أكبر من الإحساس الساذج بالمرأة ، ففى الأمثلة المتقدمة مايكفى للمعرفة .

فمن كان إلى هذه اللحظة لم يشعر بهذا ولا بذاك ، فالمدرسة الحديثة غير مسئولة عن ضيق الإحساس وبلادة الشعور ؛ وليس عندها ولا من برنامجها ذلك الغزل الرخيص المطروق . ومن اعتاد ألا يطرب لغير الطبل البلدى والمزمار ، فلا عليه ألا يطرب للموسيقى التصويرية وسيمفونيات بتهوفن وفى غزل العباس بن الأحنف وعمر ابن أبى ربيعة والبهازهير والشاب الظريف وأمثالهم مايغنى عشاق الطبل والمزمار .

بقى أننا نسمع كثيرا نغمة متكررة اسمها « الأسلوب » . ولعل منشأ هذه النغمة أن المدرسة الحديثة نشأت شديدة الزراية بالألاعيب اللفظية التى ليس وراءها إحساس صادق ولا شعور ممتاز ، ففهم جماعة من الناس أنها غير معنية بجمال التعبير ، وذلك خطأ لا تبرره مبادىء هذه المدرسة ولا يبرره إنتاجها فقد سمعتم منى الليلة عشرين مقطوعة ، وهى لا تقل فى مجموعها من ناحية الأسلوب عن أروع الأساليب العربية وأرقها وأمتنها ، وفيها ما يرتفع فوق كل ذروة بلغتها أساليب التعبير العربية ، ومثلها كثير فى دواوين الشعراء المجددين ، وذلك فضلا على أنها تضطلع بتصور أحاسيس ومعان لم تكن تضطلع بها الأساليب القديمة وهذا عبء جديد من الإنصاف تقديره . ولا يجوز أن يرتكن الناقدون الأسلوبيون إلى مقطوعات وأبيات لا يجدون فيها الرنين الظاهر والموسيقى المحسوسة ، فربما استعاضت عن هذا بفكرة مبتكرة لا يناسبها إلا أسلوب دقيق . وعلى أية حال فهى قلة لا تعاب إلا كما عيب مثلها على شعراء مثل المتنبى وأبى تمام والمعرى ، فلم تقدح فى مستواهم الرفيع .

إن المدرسة الحديثة تصغر من قيمة الأساليب لأنها أداة أولية للفنان لا تستحق الالتفات مفروض استكمالها ومعرفتها كمعرفة المصور بطريقة خلط الألوان والأصباغ . فالتجويد فيها وحده لا يحسب شيئا ولا يستحق التفاتا خاصا . وكما أنك لا تمدح الرجل القوى البنية بقولك : إنه يمشى بخطا مستقيمة . كذلك لا تمدح الشاعر بقولك : إنه يجيد التعبير . فالتعبير فى الشعر مرحلة بدائية آلية كالمشى عند الرجل القوى البنية أو هو كما قلت كمران المصور على خلط الأصباغ والألوان لا يكفى ليكون فنانا ، ولا ينبغى ذكره إلا على هامش مزاياه ،

وقد أرادت المدرسة الحديثة أن تقول هذا للمعتزين بالأساليب . فأصغرت من شأن الأسلوب ، الذى لم يخلق فذانا إلا أن تكون وراءه ذخيرة نفسية وطبيعة قوية.

فإذا شاء أحد أن يحتسب على المدرسة الحديثة تلك الأساليب الأخرى المرتعشة المتراقصة الصور والأخيلة . المتداخلة الاستعارات والكنايات ، فالمدرسة الحديثة لا تعرف شيئا عن ذلك العبث ، وإنما هى فتنة بالبريق والجلجلة والزقوش ، وهى ليست شعرا أصلا — بله أنها من الشعر الجديد — فدونهم والإنكار على تلك الفتنة فإنا معهم لمنكرون .

حلوان سيد قطب

تيسير الكتابة والقراءة

لحضرة الأستاذ الفاضل
الشيخ عبد الفتاح خليفة
المفتش بوزارة المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أيها السادة ، أيها الإخوان ، يارجال العلم والأدب ، وياقادة الرأى والتفكير ، وياحماة اللغة العربية ، فى مصر وغير مصر ، منذ تخرجت فى دار العلوم ، واشتغلت بالتدريس ، وأنا أبحث ، فيما يذلل للتلميذ والمتعلم ، القراءة والكتابة العربية، فألفت كتبافى الإملاء ، قصدت فيها إلى تسهيل رسم الهمزات وخلصتها من قولهم « يجوز الأمران » وسار عليها الناس فى كتابتهم؛ وألفت كتابا فى المطالعة الأوليَّة ، على طريقة القراءة الصوتية ، ولكنها لم تف بالغرض الذى أريده ، فما زلت أفكر حتى هداني ربى لهذه الطريقة ، التى أسميتها « الكتابة الفاروقية » التى لايجد المبتدىء فى تعلم القراءة والكتابة بها ، عناء يذكر ، والتى يقرأ ويكتب بها صحيحا دائما ، ولايتعثر فى كتابة همزة ولا ألف لينة فى آخر الكلمة ، ولافيما يكتب بلام أو لامين ، وما إلى ذلك وهذه الطريقة عندى منذ خمس عشرة سنة وكان يمنعنى من إظهارها مخالفتها للقديم من رسم المصحف وغيره : فلما وجدت الاتجاه شديداً نحو استحداث حروف غير المعروفة ، لاتمت إلى القديمة بسبب حفزنى كل ذلك إلى أن أظهر

طريقى ، لأنها ترجع إلى الحروف والعلامات القديمة ولا تتطلب سبكا جديدا، وقبل أن أبين طريقى أذكر لحضراتكم الأدوار التى مرت بها الكتابة حتى الآن ؛ لتعلموا مادخل عليها من التحسين وأنها ماتزال قابلة للتحسين .

لقد قطعت الكتابة أدواراً كثيرة ، حتى صارت إلى ماهى عليه الآن فهى إذاً مجال للتغيير والتحسين ، كلما تقدم الناس ، وزادت الأعمال واحتاجوا للسرعة والضبط فى الكتابة والقراءة ، ليسهل الفهم ولايكونَ الخطأ .

ولا يقف رسم المصحف فى سبيلنا ؛ لأن للمصحف رسما خاصا به ، على أن رسم المصحف قد دخله الشكل بالنقط ، ثم الإعجام بالنقط ، ثم بعض علامات الشكل ، ثم الشكل التام بعلامات الشكل التى وضعها الخليل بن أحمد وقد انتقلت كتابة المصاحف من الكوفية إلى خطوط أخرى كثيرة ، فهذه تغييرات كثيرة دخلت على كتابة المصحف لضبطه ، ومع ذلك فليكن للمصحف رسمه الخاص به ، ولْنُدْخِلْ مانستطيع على الكتابة من التحسين. وإليكم الأدوار التى مرت بها الكتابة: كانت الكتابة أول نشأتها تكون برسم صور الأشياء المحسَّة للدلالة عليها، فيرسمون صورة الأسد ، للدلالة على الأسد، وصورة الرُجل للدلالة على الرجل ، وصورة المرأة للدلالة عليها وهكذا . ثم احتاجوا للدلالة على المعانى : كالشجاعة ، والمكر ، والغنى ، والفقر ، فرسموا الأسد للشجاعة ، والثعلب للمكر ، والرجل الضخم للغنى ، والرجل النحيف للفقر ، ثم فكروا فى تكوين الحروف لشدة الحاجة إليها ، فوضعوا للحروف صوراً من صور الحيوان ، وجعلوها أعلاما للحروف : كصورة الغراب للألف والإوزة للباء ، والسبع للام . فإذا ركبت هذه الصور دلت على المراد حسى أو معنوى ، ثم جاء الدور الحرفى الخالص ، لأن الكتابة بالصور تتطلب مجهودا ووقتا، فوضعوا علامات مجردة لاتدل إلا على صور الحروف فكان لكل أمة حروف خاصة بها .

أصل الكتابة العربية : والكتابة العربية مأخوذة عن المصرية القديمة، فقد نشأ عن المصرية.

(١) الكتابة الفينيقية، وفينيقيا بالشام على ساحل البحر الأبيض عند جبل لبنان.

(٢) الكتابة الآرامية فى الشمال من بلاد العرب.

(٣) كتابة المسند ببلاد اليمن.

(٤) الكتابة الكِنْدية فى البحرين.

(٥) النبطية فى بلاد مدين وخليج العقبة.

(٦) الكتابة الحيرية بالحيرة القريبة من الشاطىء الغربى للفرات، والكتابة الأنبارية بالأنبار على الشاطىء الشرقى للفرات بالشمال من الحيرة. وقد أخذ أهل الحجاز الكتابة عن أهل الحيرة والأنبار المأخوذة كتابتهم عن النبطية، وهى بعينها الكتابة الكوفية، والكوفة على شاطىء الفرات الغربى بالجنوب من الحيرة، ونسبت هذه الكتابة إلى الكوفة؛ لأن أهل الكوفة هم الذين حسنوها ونوعوها، وسمى الخط الدقيق منها بالنسخى وكتبت به المصاحف والكتب والرسائل وماشابهها، وسمى الخط الكبير منها بالمبسوط، وكتبت به جدران المساجد والمحاريب وماشابهها.

دور الشكل : لم تكن الكتابة العربية أول أمرها مشكولة، فلما فشا اللحن — شكلها أبو الأسود الدؤلى بالنقط، فالفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته، والضمة نقطة أمامه، ولما أشكلت عليهم الحروف واختلطت فلم يعرفوا الباء من التاء أو الثاء أو النون أو الياء، ولا الحاء من الجيم أو الخاء، ولا الدال من الذال — وضعوا الإعجام بالنقط، وكان نقط الشكل بلون يخالف نقط الإعجام، وكان ذلك فى زمن عبد الملك بن مروان، وقد قوبل الإعجام بثورة شديدة من أنصار القديم، ولكنه سار وعُمل به؛

ثم زيدت بعض علامات الشكل كالشدة والسكون والهمزة ، ولكنها لم تف بالمقصود من الضبط وإزالة الاشتباه ، فوضع الخليل بن أحمد طريقة الشكل المعروفة؛ للقضاء على الاشتباه ، ولتكون الكتابة وشكلها بمداد واحد .

دور تنويع الكتابة : تنوعت الخطوط وخرجت من الكوفية إلى غيرها فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس ، وأول من نقل الخط العربى من الشكل الكوفى إلى غيره — هو قُطْبَةُ المحرر ، وكان فى أواخر خلافة بنى أمية ، وكان أكتبَ أهل زمانه . ثم جاء الوزير أبو على ابن مقلة (المولود ببغداد سنة ٢٧٢ هـ وكان وزيرا للمقتدر بالله سنة ٣١٨ ، وللقاهر بالله سنة ٣٢٠ ، وللراضى بالله سنة ٣٢٢ ، وتوفى سنة ٣٢٨) فهندس وضبط ، وحسن وأبدع فى الأنواع التى أوجدها قطبة المحرر ، وهى الثلث بأنواعه ، والنسخى بأنواعه ، وخط الرقاع . وعنه انتشر الخط البديع فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى ضرب بخطه المثل فى الحسن والجمـــال ، ومازالت أنواع الخط فى ازدياد وتحسين ، حتى كانت الخلافة العثمانية ، فعنوا بالخط بعد ماأخذوه عن بغداد ومصر وزادوا فى الأنواع : الخط الديوانى ، والخط الهمايونى ، وحسنوا خط الرقاع وهو الرقعة . وأجادوا كل الأنواع إجادة تامة ، ولما زالت الخلافة العثمانية انتقل تجويده وتحسينه والعناية به إلى مصر معقل الفنون والعلوم العربية ، فأصبحت مصر الآن زعيمة الأمم الشرقية فى إجادة الخط العربى ، كما هى زعيمة فى غيره من الفنون والعلوم .

من هذا الموجز كلَّ الإيجاز تعرفون حضراتكم مامرت به الكتابة العربية من الأدوار ؛ فهى قابلة للتحسين والاختصار ، والضبط والتحرير ، ولكن بشرط إيجاد الصلة بين القديم والجديد ، لا بقطع هذه الصلة ، كما فكر بعضهم؛ فإن ذلك يحرمنا تراثا عظيما فى العلوم والآداب خلفه لنا آباؤنا وأجدادنا وسلفنا الصالحون ، وهذا مالا يرضى به أحد .

وقد جئت الليلة أعرض على حضراتكم فكرتى فى تيسير الكتابة وضبطها بعد هذه التقدمة ، لعلنا نصل بها وبغيرها إلى مانروم ، وبالله التوفيق والهداية.

وطريقى مبنية على خمس قواعد ، وهى :

(١) الاستغناء عن الفتحة ، وتكون علامتها إهمال الحرف المفتوح : مثل وعدك فصدقك وحضر ونصرك وخرج معك .

(٢) الاستغناء عن ألف المد بوضع هذه العلامة (ٰ) فوق الحرف الممدود بها مثل : مثل : يحفظ يعقل م لن غير عملن .

(٣) الاستغناء عن علامة الهمز « ء » هذه بتصويرها ألفا دائما مثل : اذ جات جاتن ببطا وقادة يفاد .

(٤) الاستغناء عن واو المد ويائه ، بوضع هذه العلامة « - » فوق الحرف الممدود بالضم ، وتحت الحرف الممدود بالكسر : مثل محببك احبب ييسف ياخ .

(٥) كتابة مانتطق به وحذف مالا ننطق به بعد ذلك مثل : —

فصدق نجة وفلكذب لهلك ولحق اول بلتبع فلزم صدق ولحق دام ، فله سبحنه وتعل ل يحب لكذبن ، ويرض عن صدقن .

مزايا هذه الطريقة

(١) الاقتصاد فى الكتابة (٢) النطق الصحيح (٣) الخلاص من متاعب الإملاء (٤) عدم الاحتياج إلى سبك حروف أوعلامات جديدة (٥) السهولة التامة فى معرفة وتعلم القراءة والكتابة مع الضبط .

فى الوقف والابتداء

(١) نقف على التاء المربوطة بالهاء : مثل : الْكلمهْ ، اطّيّبهْ ، صدقهْ .

(٢) نقف على ما آخره فتحتان غير مفتوح : مثل : ربّ ، سمع ، عجب ، قرب .

(٣) نقف على ما آخره مد بالمد،مثل:كتب ، إل ، أخ ، ابدع ، فم ، قل .

(٤) نقف بالسكون فيما عدا ذلك . مثل : ايم ، معددت ، ف ، بلد .طيب

(٥) إذا حذفت المدة المفتوحة ترد فى الوقف ، مثل : إل ، عل ، مت ، حت ، فى : إل لبلد ، على لفرس . مت سفر ، حت لقمر .

الإبتـــداء

(١)نأتى بألف مفترحة للبدء بالسا كن والمشدد مثل : خذ شعة من لولد هذه سما صفية ، فنقل : اشعة ، اسما ، الولد .

(٢) وقد تضم الألف أو تكسر على حسب القواعد المعروفة فى مثل وخرج : اخرج ، وفتح — افتح : الخ

تدريب

بحمد له تمت لفكرة ، وهى ذه ، اعرضه لنقد وتمحص ، حت نصل به ال تيسر لكتبة لعربية ف هذ لعصر سعد لمبرك عصر لملك سعد لملك صلح « فرق لاول » حفظه له وادم ملكه لعظم ف سعدة وسيدة وسلم امن .

عبد لفتح خلف

من الوزراء الإسلاميين :

أبو أيوب المورياني

للأستاذ محمد أحمد برانق

ليس الارتقاء إلى المناصب من الأمور الهينة بحيث يستطيع أن يرقى إليها من يريد ، لو كان الأمر كذلك لرأيت الناس كلهم سادة ، ولما كان فيهم مسود ، ولكانوا جميعا شرفاء ، وما كان فيهم مشروف . ولكن الارتقاء إلى مثل تلك المناصب يتطلب نبوغا خاصا يشبه أن يكون شذوذا أو يشبه أن يكون خروجا على مألوف الطبيعة ، وليس ذلك فيهم جميعا وإنما هو فى الكثير الأغلب فقد يرقى إلى منصب رفيع ولاسيما فى زماننا هذا من لم تؤهله مواهبه العلمية أو الأدبية أو الفنية ، وقد يرقى إليه من يكون ذا مؤهلات من جاه أوحسب أو صداقة خاصة ، أو من يصطنع نوعا خاصا من الأخلاق يجعل أولياء الأمر يدفعونه إلى المركز الرفيع طائعين أو مكرهين . ولكنهم حين يخلون إلى أنفسهم يكونون غير راضين فلا ضميرهم يرتاح إلى ماصنعوا ، ولا الوطن منتفع بهم ، ولا الله راض عنهم ، وهؤلاء فى الغالب لايظل مادفعهم إلى المرتبة العلية من جاه أوحسب أوصداقة أو غير ذلك يحجب عن الانظار سوءاتهم ، فإنهم لايلبثون أن تظهر عوراتهم ويفتضح أمرهم ويبوءوا بالفشل الذى يعقبه الخزى والعار.

وليس كل الذين منحهم الله ذلك النبوغ الخاص يوضعون فى الموضع الذى يجب أن يكونوا فيه ، فقد لايستغلون نبوغهم بالعمل ويركنون إلى الكسل. وقد ينبغون فى الناحية التى وقفوا أنفسهم عليها، ولكن الله لم يهيء لهم من

يأخذ بيدهم ، أو يفسح السبيل أمامهم ، أو يلفت نظر أولى الأمر إليهم ، أو أى شىء غير ذلك من الأمور التى نلمسها نحن الآن فى حياتنا . ومثل هؤلاء إن أخطأهم شىء فلن يخطئهم أنهم ينفعون حيث يكونون — وأنهم إن وهب الله لهم خلقا حسنا ومتعهم بالرضا بقضائه وقدره — نعم بالهم واطمأنوا وقنعوا ، والقناعة إحدى السعادتين .

***

ونحن إذا صفحنا كتب التاريخ رأينا كثيرا من الذين ولوا أمور الناس وبسطوا سلطانهم كانوا يتمتعون بشخصيات قوية ثبتت على مجادلات المنافقين وبقيت حتى أثرت فى التوجيه السياسى فى زمنهم ولعل من هؤلاء فتى حدثا نشأ فى قرية من قرى الأهواز . اسمها الموريان [1] فنسب إليها وعرف بالموريانى واسمه سليمان بن مخلد . وكنيته أبو أيوب .

تعلم أبو أيوب العلوم كلها — تعلم الطب والنجوم والحساب والكيمياء حتى السحر ، وكان له فى كل علم نظر إلا الفقه . وكان إلى تمكنه من العلوم المختلفة خفيفا على القلب ظريفا . وكان ظرفه وجماله على مايظهر وراثيا غير مكتسب؛لأن هذا كان ظاهراً فيه وفى أخويه: مخلد ،ومسعود ، وكان ذلك سببا فى أنهم جميعا نالوا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما .

وكانت لأبى أيوب صلة خاصة بالمنصور ، فخف على قلبه وقربه إليه ، وأجلسه فى حضرة الخلافة ، وكان المنصور قلد عبد الملك بن حميد كتابته ودواوينه ، وكان لعبد الملك هذا عند الخليفة منزلة خاصة ، جعلت عبد الملك يسوق عليه دلاله ، فيتثاقل عنه ويتغلل عليه ، ولكن لكل شىء غاية ، ولاسيما هذه الناحية التى قد تفتح لأعداء عبد الملك ثغرة ينفذون منها إلى قلب المنصور

---

(١) الموريان : بضم الميم وسكون الواو وكسر الراء وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون (وفيات الأعيان) .

وبخاصة أن حساد ذوى الحظوة عند الملوك كثيرون فى كل زمان ومكان .

تمادى عبدالملك فى التثاقل عن المنصور والتفال عليه،حتى استثقل المنصور ذلك منه ، وكرهه مع استصلاحه له وسكونه إليه ، وأمره أن يتخذ له نائبا ينوب عنه إذا غاب عن مجلس الخليفة ، فاتخذ عبد الملك أبا أيوب وكيلا له يحضر عنه إذا غاب – وما كان أكثر أن يغيب – ولعل المنصورهو الذى أشار بنيابة أبى أيوب عن عبد الملك ؛ لما له فى قلبه من المنزلة ، وهو خفيف على القلب ظريف ، متأت لما يريده منه المنصور ، موفق فى عمله

شاء الله بعد ذلك أن يهيء الظرف الذى يصعد فيه نجم أبى أيوب،ويتمكن مكانه عند الخلافة ؛ فاعتل عبد الملك من نقرس كان به ، فلزم داره ، فقام بالعمل وكيله ونائبه أبو أيوب ، وكان ناجحا فى أدائه ، فعلا نجمه – وذاع صيته ، وزاد محله – عند المنصور – حتى قلده وزارته ، وفوض إليه أمره كله ، وترك له تدبير الشئون .

***

قدمنا أن أبا أيوب من قرية من قرى الأهواز ، اسمها الموريان ، وأنه نسب إليها ، وأنه كان له أخوان ، وكان له أقارب أدنون وأبعدون ، فما كاد يتولى الوزارة والدواوين للمنصور، حتى جاء بأهله وصرفهم فى الأعمال فعزل من عزل من غير أهله ، ثم ولى من ولى من أهله وتمكن داء المحسوبية من نفسه ، حتى كان جميع أهله يتولون أعمالا يصرفونها ، ونال أكثرهم من الدنيا ونعيمها حظا جسيما . فعل ذلك كله على علم من المنصور، ولكنه كان يغفل عنه أو يتغافل ، مع أنه « كان من الحزم ، وصواب الرأى ، وحسن السياسة على ماتجاوز كل وصف »ولذلك عجب الناس أشد العجب حتى اعتقدوا أنه لابد أن يكون فى الأمر سر ، وبحثوا عن ذلك فلم يهتدوا إليه فقالوا : كما تقول العامة : إن أبا أيوب سحر المنصور ، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه ، ويطليه

على حاجبيه إذا أراد الدخول عليه ؛ فسارفى العامة : دهن أبي أيوب ، وضرب به المثل [١] » .

ولعل للمنصور فى ذلك عذراً فإن أبا أيوب فوق ماقدمنا من أنه كان ظريفا خفيفا على القلب متأتيا لما يريده المنصور — كانت له بالمنصور حرمة ، وربطه به قبل الخلافة سبب اعتقد المنصور أنه دين فى عنقه لأبى أيوب، ولا بد من الوفاء به ، وقد يكون من الوفاء أن يوليه وزارته ودواوينه ، وأن يطلق يده فى تدبير شئون الملك ، وأن يدعه ينتفع هو وينفع من حوله من أهله وخاصته إلا أن هذا السبب ما كان يجعل المنصور يطلق يد أبى أيوب بحيث يعتقد أنه ليس عليه رقيب ، فيطغى ويبغى ويظلم ثم يؤخذ بطغيانه وبغيه وظلمه كما سيأتى ؛ وإنك لتعجب إذا عرفت السبب الذى تظن أنه هو الذى حدا إلى ترك أبى أيوب ، وإطلاق يده . إنه لم يكن أكثر من أنه أنقذه من أمير حكم عليه أن يضرب ، فحمى ظهره من الضرب بالسياط ، وقد يكون السبب معقولا إلى حد ما إذا كان حمى صدره من الطعن بالرماح . أو حمى عنقه من الحز بالسيوف . فيكون فى رعاية ذلك الجميل له بعض العذر ؛ أما الضرب بالسوط فسببه أن عبد الله بن معاوية كان غلب على أصبهان وبعض فارس وبعض الأهواز أيام مروان ، فوفد إليه الهاشميون أجمعون من بنى على وبنى العباس وغيرهم ، واستعان بهم عبد الله فى أعماله ، وكان من الوافدين إليه أبو جعفر المنصور ، فقلده بعض الأعمال ، فأخذ المال وحمله إلى البصرة وسار إليها ، وكان عامل مروان على البصرة قد وضع الأرصاد على كل من يمر من عمال ابن معاوية فقبض على المنصور وحمل إلى عامل مروان ، فقال له : « هات المال الذى اختنته ، فقال : لا مال عندى ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : — وكان كاتبا لعامل مروان — أيها الأمير : توقف عن ضربه ، فإن الخلافة

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٢ ، والوزراء والكتاب ص ٦٥ ، وابن خلكان ج ١ ص ٢١٦

إن بقيت فى بنى أمية، فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف، وإن صار الملك إلى بنى هاشم، لم تكن لك بلاد الاسلام بلادا؛ فلم يقبل منه، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطا؛ فلما اتصل ضربه إياه. قام إليه أبو أيوب، فألقى نفسه عليه، ولم يزل يسأله حتى أمسك عن ضربه، وأمر بحبسه [1] ». إلا أن المضريين تحركوا لضرب أبى جعفر، وثاروا، وتجمعوا وساروا إلى السجن، وكسروه، وأطلقوه، فذهب إلى البصرة، وكان يتذكر صنيع أبى أيوب، ويشكره له حتى ظهر أمره، وقربه إليه، ثم ولاه الوزارة، واختص به.

وبلغ من خصيصاته به أن أم سليمان الطلحية اتخذت لأبى جعفر مجلسا فى المصيف، جعلت فيــه الرياحين وجلبت سائر الطيب والثلج، فلما صار المنصور إلى ذلك المجلس أعجبه برده ولذه حسنه، إلا أن ذلك الإعجاب وتلك اللذة لم يبلغا من نفسه المبلغ الذى يرجوه لها؛ لأن أبا أيوب غائب عن مجلسه، ولذلك يقول لصاحبة المجلس: إنه لاينتفع بما هو فيه من برد وحسن، فتعجب المرأة وتسأله عن السبب، فيجيب: أنه ليس معه أبو أيوب، فيحدثه ويؤنسه، ولكن المرأة تصرح أنها ماهيأت المجلس إلا لسرور الخليفة، فإذا كان سروره لايتم إلا بحضور أبى أيوب، فليس عليه بأس أن يبعث إليه من يحضره ليحدثه ويؤنسه. فبعث إليه، فحضر، فما كاد يراه حتى تهلل وصاح به: يا أبا أيوب: « كما رأيت طيب هذا الموضع ولذته، لم انتفع به حتى تكون معى فيه. فدعا له وأقام معه » فهذا هو أبو جعفر لم يطب له مجلس توافرت له فيه أسباب الراحة والمتعة والسرور حتى يحضر أبو أيوب ليحدثه ويؤنسه

***

استقام الأمر لأبى أيوب، وتولى الوزارة والديوان، وقام على تدبير

(١) الوزراء والكتاب ص ٦٦.

الشئون ، وعلت منزلته فى نفس المنصور ، وعرف الناس ذلك له فأصبحوا يرجون رضاه ، ويخشون غضبه . وكان يهمهم ذلك أكثر مما يهمهم من المنصور نفسه ، لأنهم إذا غضب عليهم المنصور شفع لهم عنده أبو أيوب ، وأما إذا غضب عليهم أبو أيوب فمن ذا الذى يشفع لهم عنده ؟ !!

ولقد عظم فى عين المنصور حتى إن الأمراء وبنى أعمام الخليفة وذوى قرابته الأدنين والأبعدين — كانوا إذا بدرت منهم بادرة يلتمسون من المنصور العفو على يد أبى أيوب ؛ ولقد حدث أن ابن المقفع حينما كتب العهد على المنصور لعبد الله بن على ، وكد ذلك العهد ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيه ، حتى لم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلته فيه ، لفرط احتياط ابن المقفع ؛ ولقد شق على أبى جعفر المنصور أن يشترط عليه ابن المقفع التوقيع على العهد بخطه وفى أسفله ، كما شق عليه التشديد فى المواثيق حتى إنه أخذ عليه أن يتعهد ألا ينال عبد الله أو واحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، وألا يوصل إلى أحد منهم ضررا ، سرا أو علانية على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحا أو كتابة أو بحيلة من الحيل ، وإنه إن فعل ذلك ، أو حاوله ، فهو نفى من أبيه ، وإن محاولة نقض ذلك الميثاق يجعل جميع أمة محمد فى حل من خلعه وحربه والبراءة منه ولا يجعل له بيعة ولا عهدا ولا ذمة فى رقاب المسلمين ، ويجب عليهم إذ ذاك أن يخرجوا من طاعته وأن يعينوا من ناوأه من جميع الخلق ولا تكون بينه وبين أحد المسلمين موالاة ، ويكون كافرا بجميع الأديان ويلقى ربه على غير دين ولا شريعة وأن يكون محرم المأكل والمشرب والمركب والزى والحلل والملبس على جميع الوجوه ومختلف الأسباب [1].

هذا الميثاق الموكد الذى احترس فيه ابن المقفع من كل تأويل يجوز أن

١ — ورد هذا العهد بنصه فى كتب التاريخ المطولة .

يقع فيه — جعل أبا جعفر يجد فى نفسه على ابن المقفع. وكان سفيان ابن معاوية يطعن على ابن المقفع أشياء منها أنه كان يسأله عن الشيء بعد الشيء فيجيب فيسخر منه ابن المقفع ويهزأ به، ويضحك ويتغامز به، ثم يصيح: أخطأت، فيغضب سفيان ويفترى عليه مايهيجه، وينطق لسانه بأقبح الشتائم وأشدها على الرجال، ومنها ما كان من معاونة ابن المقفع لعامل نيسابور ضد سفيان، وكان قد سفر بينهما وظل يطاول سفيان ويراوغه ويدافعه ويعلله حتى استظهر المسيح بن الحوارى عامل نيسابور، وقوى أمره، فامتنع على سفيان وصرفه عن نيسابور مرغما منهزما مكسور الترقوة.

فلما علم سفيان ماثبت من الموجدة على ابن المقفع فى صدر المنصور، شجعه ذلك على الانتقام منه متى أمكنته الفرصة، وقد هيأت له الأيام ما أراد: فإن عيسى بن على أرسل ابن المقفع إلى سفيان ليسفر بينهما فى أمر من الأمور، وكأن ابن المقفع كان يحس فى نفسه مايضمره له سفيان من موجدة وعداوة، فتأبى ولكن عيسى أمره أن ينطلق إليه؛ لأنه يعلم مكانه منه، فلا يتعرض له بسوء، وانتهى أمر هذه السفرة بقتل ابن المقفع على صورة من أشنع الصور وأبشعها وأقساها وأفظعها، فقد كان يقطع أعضاءه عضوا فعضوا، ثم يلقى كل عضو يقطع فى تنور مسجور، فيحترق وهو ينظر اليه.

علم عيسى بن على بمقتل كاتبه ابن المقفع، فحزن عليه، واستعظم أن يفعل سفيان ذلك، وأرسل اليه أن يخلى عنه إن لم يكن قتله، ويطالبه بدمه إن كان قتله. فأنكر سفيان أن يكون رآه، ثم استشار أحد خلصائه فقال له: «إن عيسى لايقدر لك على مضرة ههنا لأنك الوالى، ولكنه سيكلم أمير المؤمنين بالكوفة، وليس أحد أخوف عليك من أبى أيوب سليمان بن أبى سليمان الكاتب فإنه إن عاونه ضرك، وإن كف عنك رجوت ألا ينال منك عيسى مايريد».

فهذا سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، يشير عليه صفيه ونجيه وخليله عمر بن جميل أن يلوذ بأبي أيوب ، فإن أعانه ودفع عنه عند الخليفة نجا من يد عيسى بن علي ، وإن لم يدفع عنه لم يفلت من يده .

خرج عيسى إلى المنصور يشكو إليه عسف سفيان وظلمه وقتله ابن المقفع ، فأرسل المنصور إلى سفيان من قيده وحمله إلى المنصور وكان معه رجال من أهل بيته وخاصته . فهذا هو المنصور أغضبه عيسى بن عليّ على سفيان فمن الذي ينقذه ؟ لا أمل له في ذلك إلا عند أبي أيوب صاحب الحول والطول ، والقابض على الزمام ولكن من له بأبي أيوب وكيف يستميله إليه ، أرغبة أم رهبة ؟ إنه كتب إلى صديق له من قبل يبلغه أن عيسى بن علي اتهمه في أمر ابن المقفع ، ولكن هذا لا يكفي . أخذ يقلب الرأي على وجوهه المختلفة هو ومن معه من أهل بيته وخاصته : « فأشار عليهم رجل منهم أن يلقوا أبا أيوب فيكلموه كلاما خشنا ، يرهب معه منهم ، ويتخوف ناحيتهم ، وألا يسرفوا عليه فيحفظوه ، وألا يضعفوا في مخاطبته فيطمعوه . ففعلوا ذلك . وقال له سفيان : أنا أعلم أني إن سلمت فبك أسلم ، وإن عطبت فوالله إني وأهل بيتي نعلم أني بك عطبت ، وبرأيك أقتل . فارتاع أبو أيوب ، وقال : « أنا ! — قال : نعم ؛ لأنك تقدر على أن تدفع عني ، فقال لست أدع القيام بأمرك » .

وأيا كان السبب في قتل ابن المقفع فإنه إذا صحت هذه الرواية ، فإنها تدل على أن سفيان بن معاوية وهو ذو مكان ورياسة وجلال وتقدم في قومه وهو صاحب عمل وأمير إمارة ، وهو حسيب نسيب — قد استعان بأبي أيوب ليكون نصيره عند المنصور وكان يعتقد أن المستعان به معان ، وأن الملتجىء إليه ناج ، وأن اللائذ به معصوم . لذلك لم يتردد في أن يمد يده إليه بطلب المعونة ويرجوه أن يقف بجانبه ضد عيسى بن علي ، وإن قيل : إن الموجدة التي كان المنصور يجدها على ابن المقفع ساعدت أبا أيوب في شفاعته ، وقوت مركزه

أمام المنصور ضد عيسى — رددنا ذلك بأن المنصور وإن كان يجد على نفسه من ابن المقفع ، إلا أنه ربما كان يحب أن يستبقيه ذخراً لينتفع به ؛ لأنه يعلم مكانته فى الكتابة ومنزلته من الكتاب ، حتى إن بعضهم روى أن أبا أيوب كانت له يد فى قتل ابن المقفع ؛ لأن المنصور قال له يوما : — وقد أنكر عليه شيئا — كأنك تحسب أنى لا أعرف موضع أكتب الخلق وهو ابن المقفع مولاى ، فلم يزل أبو أيوب خائفا له يسعى ويدب فى أمره حتى قتله .

من هذا يتبين أن المنصور كان يجل ابن المقفع ، ويعرف له مكانه ، وكان يرجو أن ينتفع به يوما من الأيام ، فلما سمع مافعله سفيان لم يعجبه ذلك منه ، وأرسل اليه أبا الخصيب وكتب اليه : « قد وجهت اليك بأبى الخصيب ابن ورقاء ، فإن كان ابن المقفع حيا فادفعه اليه ، واثبت على عملك ، وإن لم تدفعه اليه ، فقد أمرته بعزلك وبحملك » .

ooo

إذن يشفع أبو أيوب فى سفيان ، ويدفع عنه ، وينكسر عن نصرة عيسى ابن على حتى يتأثر المنصور بدفاع أبى أيوب ويطلق سفيان ، ويعود إلى رأيه الأول فيه .

ooo

وهذا أبو جعفر يريد أن يقتل أبا مسلم ، فلم يجد من يستشيره ويستشير له سوى أبى أيوب ، فهو يدفعه ليشاور سلم بن قتيبة فى أمر أبى مسلم ، فيشير سلم بالتجاوز والصفح عن ذنبه ، ثم يدفعه المنصور إليه مرة أخرى ويعلمه أنه يشاوره بأمر أبى جعفر ، فيقول سلم : « لايصلح سيفان فى غمد ، ثم يتلو : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولا يزيد . ثم يدخل أبو أيوب يوما على أبى جعفر وبين يديه كتاب من أبى مسلم ، فيدفعه إليه فيقرؤه ، ثم يستمع

إلى المنصور يقول : والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه ، فيوجس فى نفسه خيفة إن قتل أبو مسلم . ولكن الخليفة مصمم على قتله ، فلا بد أن يحتال له أبو أيوب على ذلك حتى لا تكون فتنة ؛ لأنه يعلم منزلة أبى مسلم من نفوس الناس عامة، وأتباعه خاصة ، ويعلم أنه لو مثل على الوجه الذى يريده المنصور ، وقع بين الناس تخليط كثير لا يسلم منه هو ولا المنصور وجرى فى نفسه همهمة طويلة قال فيها : « والله ما أرانا نسلم . وما أحسب أصحاب أبى مسلم ، يرضون إن قتل، أن يدعوا هذا على الأرض ولا أحدا من أسبابه » هنا ينصرف أبو أيوب من حضرة المنصور ، ويمتنع عليه النوم ليلته ، ويفكر طويلا فى كيفية استقدام أبى مسلم ، فيرى أن خير طريقة أن يقدم آمنا على نفسه . فيكون ذلك أسهل لما يراد منه أو يراد به ، أما إذا استقدم نافراً مستوحشاً ،فقد يكون وراءه شر مستطير . ولأجل أن ينفذ أبو أيوب سياسته أرسل إلى أبى مسلم من يأتى به ، ويعلمه : «أن أمير المؤمنين قد عزم أن يوليه ما وراء بابه ، ويريح نفسه ويتودع» وكان أبو مسلم إذ ذاك حسن النية فصدق كلام الرسول ، وقصر فى التحرز والتأهب ، وجاء إلى المنصور منخدعا بما ألقى إليه ، ولقى حتفه ، ولم يحدث لقتله كثير مما كان يتوقعه أبو أيوب بحسن حيلته وجميل تصرفه ، حتى إن رجلا دخل على المنصور فرأى أبا مسلم مقتولا ، فتأوه واسترجع،وكان أبو أيوب حاضرا فجبهه بكلام ألجمه ، ورده إلى صوابه إذ قال له: أشرت بقتله حين خالف ،حتى إذا قتل تأوهت واسترجعت ، وذلك يغضب أمير المؤمنين ، فبهت الرجل بغلظته وقسوته ، فاضطر إلى أن يقول كلاما يصلح به ما أفسد ، ويرضى أمير المؤمنين وكذلك استطاع المنصور بحسن تدبير أبى ايوب أن يقتل أبا مسلم وكل ما حوله منه وله وإليه . وكان إذا رأى احداً ينكر عليه ما فعل أو يخطئه فى معالجته أبا مسلم تغيظ عليه ودعا به وأغلظ له وتهدده وتوعده، فيوجس

فى نفسه خيفـــة منه ، ويرتد على وجهه كاسفا لايستطيع أن يبوح بشىء مما فى نفسه .

ولقد أصبح أبو أيوب يحترمه الخاصة من أهل بيت الخلافة وغيرهم حتى من كان يخشاهم سيده الخليفة المنصور ، فذلك عبد الله ابن مروان بن محمد يذهب إلى ابى أيوب ، ليقضى حاجة له عنده ، ثم يقوم عبد الله لينصرف من حضرة ابى أيوب ، ويكون الشكر على قضاء حاجته أن يأخذ براس أبى أيوب ويقبلها .

أتدرى من هو عبد الله هذا ؟ هو عبد الله بن مروان ، كان أبوه مروان ابن محمد من خلفاء بنى أمية . ويسمع المنصور خبر تقبيله رأس أبى أيوب ، وكان متكئا فيستوى جالسا مما ناله من العجب ، ويسأل مندهشا : قبل عبدالله رأس سليمان ؟ فيجاب : نعم ، فيرفع يديه ، ويحمد الله ، ثم يخر ساجدا شكرا لله ، ويطيل السجود لأن الله مد فى عمره حتى يقبل عبد الله رأس كاتبه ووزيره .

وكان لذلك اثر عظيم فى نفس المنصور مع أن كثيرا يقبلون يد الوزير ورأسه وقدمه ، إذا قضى لهم حاجتهم ، إلا أن عبدالله هذا كان ابن أمير المؤمنين مروان ، وخرج يوما يركب ، وأمر الجند بالزينة ، فلما علم الناس أن ابن امير المؤمنين يركب ، انجفلوا للنظر ، وصارت لهم حركة ، فخرج المنصور فيمن خرج — وكان يومئذ بدمشق — ليمتع نظره برؤية ابن امير المؤمنين وهو يركب ، فازدحم الناس ازدحاما شديدا على رءوس الطرق ومنعرجاتها ، وكانت دابة المنصور صعبة ، فسقط عنها ، وانكسرت ساقه ، وغشيه الناس واقتحموه ، ولكن الله سلم . ومكث دهراً عليلا ،لاتبرأ علته ، وبقى أثر ذلك الكسر فى ساقه حتى شاء الله أن يتم نعمته عليه فيصير الملك إليه ، ويقبل ابن امير المؤمنين راس كاتبه بعد ان يسعى إليه فى قضاء حاجته .

إن الأمور تجرى على مايريده لها صاحبها ، فإن أحسن السيرة وأخلص فى عمله ، كان النجاح مكتوبا له ، وإن لم يخلص فى عمله ، ولم تجر الأمور على وجهها ، انعكست عليه الأمور ، وتحطمت الآمال ، وكل من يحاول أن يستر مايجنيه من سيئات ، ويخفى مايجترح من آثام ، فإن الدهر كفيل بأن يظهر كل شىء على حقيقته . ولاسيما إذا كان من القوم الذين تتصل أعمالهم بمصالح الجمهور ، أو بالسياسة العامة للدولة . فإنه إن ظلم أوسلب واغتصب ، اوحابى أو دلس ، او دس ، أونافق ، أو فعل أى شىء من الأشياء التى لاتجوز أن تكون من مثله — إنه إن فعل شيئا من ذلك ، فما أخطأه من شىء ، فلن يخطئه ابدا أن يقع فى شر ما فعل ، وأن ينكشف القناع عن كل ما حاول إخفاءه ، وإذا ظهرت زلة تتابعت الزلات . وأبو أيوب : هيأت له المقادير أن يكون وزيرا ، ولكنه كان وزيرا لأبى جعفر المنصور ، وهو الخليفة المحنك المجرب الذى حلب الدهر أشطره . والخليفة الصالح التقى المجتهد فى دين الله ، والخليفة الحريص على مصالح المسلمين وأ. والهم ، والخليفة اليقظ الذى يطلع على كل صغيرة وكبيرة تجرى فى رعيته ، والخليفة الذى يحرص على مال المسلمين حرصا جعل بعض الناس يبخلونه ، والخليفة الذى قضى على أبى مسلم الخراسانى الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية . والخليفة الذى كان يعتقد « أن الخليفة لايصلحه إلا التقوى ، والسلطان لايصلحه إلا العدل » ، والخليفة الذى كان ينصح ابنه أن يستديم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواضع .

هذا هو الخليفة الذى هيأت المقادير لأبى أيوب أن يكون كاتبه ووزيره ، وكان — كما قدمنا — ظريفا خفيفا على قلب المنصور ، حسن التأتى لما يريد ، فعظمت مكانته عنده ، وقدمه على غيره ، وحظى فى مجلسه ، وكانت له به ثقة لاتحد ، ولكن أبا أيوب كان سيىء الحظ ، سيىء التصرف ، شرها ، خائنا ،

صغير النفس؛ واستطاع بدهائه أن يخفى على المنصور سيئاته مدة، ولكنه لم يلبث أن افتضح أمره، فساءت عاقبته، ونكل المنصور به وبأسرته على ماسيأتى بعد.

وإذا أردنا أن نحصى على أبى أيوب ما اجترحه من الآثام خفية — طال بنا القول، ولكن هذا لايمنعنا من أن نقول: إنه ما كاد يتولى الوزارة حتى جاء بأقاربه، وولى كلا منهم أمراً من أمور الدولة، وصرفهم فى الأعمال، فنالوا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما. ولم يعترض عليه أبو جعفر، حتى تعجب العامة، وأشاعوا أن أبا أيوب ساحر، وأن المنصور مسحور

وأنه كان يسعى على غيره من وجوه الرجال حتى يقصيهم عن المنصور لكيلا ينافسوه فى الحظوة لديه، وكان يختص به. ويقلب عليه بعض من تسوء أعمالهم وأخلاقهم، فيشرهون ويحرصون على أخذ الرشوة ممن يلونهم، فهذا محمد بن الوليد يكتب على لسان أبى أيوب إلى طريف مولى أبى جعفر، ومتولى بريد مصر والشام والجزيرة، ويطلب إليه أن يرسل إليه مئة ألف دينار، فيحملها هذا إليه، وهو يعتقد أن أبا أيوب هو طالبها وأراد الله أن يكشف تلك الخيانة، فوشى أبو أيوب بطريف عند المنصور، وحمله على مكروهه، فصرفه المنصور عن عمله، وقلد غيره، وأمر بمحاسبته، فحاسبوه، وضيقوا عليه، حتى أحفظوه عليهم، فصار إلى أبى جعفر، وأطلعه على الكتاب الذى كتبه إليه محمد بن الوليد عن لسان أبى أيوب يطالب فيه مئة ألف دينار، فلما وقف عليه المنصور دفعه إلى أبى أيوب، فعرف فيه خط كاتبه وختمه ولكنه أنكر علمه بشىء مما فيه، فغضب أبو جعفر، وقال: هذا أشد الأمرين — مئة ألف دينار تؤخذ، ولايعلم علمها. ولما انصرف محمد بن الوليد من حضرة المنصور — أراد أن يعرف حقيقة هذا الخطاب، فاستدعى محمد بن الوليد، وسأله، فقال: نعم هذا كتابى، وأنت أمرتنى به، وكابره وبهته، فكره

أبو أيوب مراجعته ، لئلا يسعى به ، فوكل به ،وحبسه ، وحال بينه وبين الناس جميعا ، حتى لا ينقل عنه ، أو ينقل إليه فتمكنه الفرصة بالوشاية والسعاية .

وهذه غلطة أبى أيوب ، فلو أنه استكتب رجلا من الأطهار المخلصين لأحسن إلى نفسه وأحسن إلى أبى أيوب ، فما كان يغشه فى عمل ، وما كان يصبر على إثم يقترفه ، وما كان يقصر فى إسداء النصح إليه . وماذا يجدى أنه احتال لقتله ، وقد وقف المنصور على حقيقة الأمر ؟ وهو إن استطاع أن يصرفه عنه ، فإن الأثر يبقى فى ذهنه ، حتى إذا تجمعت الأسباب كان هذا سببا فيضم إليها ويقويها ، ومع هذا فإن محمد بن الوليد لم يترك نفسه يقتل من غير أن يسود صحيفة أبى أيوب عند المنصور لو نجح فى السعاية فإنه دفع إلى من وكل بقتله قرطاسا ، وطلب إليه أن يقدمه إلى أمير المؤمنين ؛ وأمير المؤمنين إذا قرأ الخطاب خلع أبا أيوب وولاه مكانه ، إلا أن الرجل كان مخلصا لأبى أيوب ، فإنه أخذ القرطاس منه وضرب عنقه ، ثم حمله إلى أبى أيوب فقرأه ، فرأى فيه كل عظيمة من أمره ، مما لو وقف عليه أبو جعفر لكان سببا فى التعجيل به .

وكان يخلع على المختصين به والمقربين إليه ثوب النعيم ، ويوليهم الأعمال التى تدر عليهم رزقا واسعا رغيدا ، شأنه مع أهله وذوى قرابته ؛ فهذا صديق نصرانى كان جاراً له رقيق الحال ، فيوليه بعض الأعمال التى يصيب منها مالا كثيراً ، يجعله يبتاع لنفسه سمكة واحدة بثلاثين درهما ، لتكون طعاما له ، وكان فردا ليس له أهل ولا عيال ، ويعلم بذلك المنصور ، فيأخذه ويعنفه ، ويسأله عن ماله وعن الطريق التى حصل عليه منها ، فيعرف أنه كان جارا لأبى أيوب وزبره ، وأنه كان رقيق الحال فولاه بعض الأعمال ، فأصاب منها عشرات الألوف من الدراهم ؛ فلم يرض المنصور أن يترك له ذلك المال ، ولكنه رده إلى بيت المال لأنه اختانه من مال المسلمين ، ولعل شيئا وقر فى

نفس أبى جعفر من أبى أيوب بسبب ذلك .

***

وكان أبو أيوب لايكفيه مايفعله هو وأقاربه وأصدقاؤه فى الإصابة من مال الدولة بحق وبغير حق ، فإنه تطاول على المنصور نفسه ، وكان يخنانه ، ويكذب عليه ، ويأخذ منه ماله — فهذا هو المنصور له ابن رقيق الحال يحبه كما يحب إخوته ، ويتمنى له من الخير والسعادة مايتمناه لهم ، ولكنه يقطع إخوته جميعا من دونه ، فيعز ذلك عليه ، ويفكر فى إقطاعه كما أقطع إخوته ؛ فيتقدم أبو أيوب إلى المنصور بدهائه ولباقته وظرفه وخفته ، ويخبره أنه أصاب لذلك الابن ضيعة خصبة ، يغذيها دجلة ولاعيب فيها إلا أنها دثرت رسومها ، وهجرت ربوعها ، وانطمست أنهارها ، فهى فى حاجة إلى الإصلاح يتكلف ثلثمائة ألف درهم ، فإذا شاء أمير المؤمنين أن يقطع ابنه المسكين هذه الضيعة ، وأن ينفق عليها تلك الدراهم التى تبلغ ثلثمائة ألف درهم — فعل ، ونحن له طائعون . فظن المنصور أنه مخلص فيما يقول ، فأقطع ابنه الضيعة ، وأمر بالمال لإصلاحها .

والذى حمل أبا أيوب على المغامرة فى ذلك ، أن الرخاء عم ، والأسعار رخصت ، فطمع هو فى أن يستغل هذه الحالة ، ليكسب من ورائها شيئا ، فسولت له نفسه أن يشترى طعام سواد الكوفة ، وسواد البصرة طمعا فى الربح ، فاشتراه ، وحرر المنصور عليه بذلك المواثيق : إلا أن الأسعار ظلت ترخص ، والمنصور نشط فى مطالبته بالمال الذى تعهد به . فكان يدفع من ماله الخاص حتى تحمل شيئا كثيرا من الخسارة . فالرخص متتابع ، والإرهاق بالمطالبة متتابع . فلما أراد أن يعوض بعض ماخسره ، لجأ إلى تلك الحيلة الدنيئة التى يدلس بها على أمير المؤمنين ويغشه ، وما كان أغناه عن ذلك لو أنه أحسن التصرف فى الأمور ، وراقب الله والضمير والوطن والخليفة ، فيما يأتى ومايذر .

أخذ أبو أيوب المال ليصلح به الضيعة . ولكنه أخذه لنفسه ، وأدى منه صدرا من خسارته فى الطعام ؛ ولما حال الحول وطالبه المنصور بغلة الأرض — حمل إليه عشرين ألف درهم على أنها غلتها ، فسر المنصور بذلك ، إلا أن أمرا مثل هذا ما كان ليخفى عن المنصور مهما حاول أبو أيوب فى كتمانه ، لأن حوله من العيون والأرصاد ، من يكشفون المخبآت ، ويظهرون الدفائن، مهما طال بها الزمان ، ولذلك لم يعدم أن يجد من يسعون لأبى جعفر بأمر هـذه الضيعة ، وأعلمه أن أبا أيوب أخذ المال لنفسه ، وأنه غره وخدعه من هذه الناحية ، فأراد أن يعرف الأمر بنفسه ، وأن يستوثق من حقيقة الأمر ، ولعله كان يستبعد أن رجلا مثل أبى أيوب يفعل مثل هذا الذى بلغه ، فتجهز للشخوص إلى تلك الضيعة ، فلما علم بذلك أبو أيوب كتب إلى وكلائه « أن يبنوا على دجلة فى طريق أبى جعفر قرى من اللبن والقصب ، وأن يغرسوا نخلا وسدرا ، وكل ما يتهيأ أن يحسن به ، ويرى ظاهره ، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر » ثم أمر أن يطلق الماء على الضيعة ، فأطلقوه ، فعمها وأغرقها ، وظهر فى وسط الماء آثار القرى ، والنخل والسدر ، وكان يريد بذلك آثار العمران بادية ، فيعود أدراجه ، ولكنه كان أشد حيطة من أبى أيوب ، فلم تجز عليه حيلته ، فأقام أربعين يوما حتى غاض الماء ، وجفت الأرض ، ثم ركب ووقف على الضيعة ، وتبين كذب أبى أيوب وانصرف ، ولم يقل شيئا إلى أن عاد إلى بغداد ، وأوقع به كما سيأتى .

***

كره كثير من الرؤساء والمتقدمين فى الدولة أبا أيوب ، ووقفوا على كثير مما كان يأتيه من الأعمال السيئة هو ومن حوله من أقاربه وخواصه ، فأتاح لهم فرصة السعاية علبه عند الربيع ، وحمله على مكروهه ، وأثبتوا له ماقدموا له من أخبار ، بأدلة لا تقبل شكا ولا تأويلا ؛ فذلك هو الربيع يشخصه

المنصور معه حينما خرج إلى الأهواز ، ليشاهد الضيعة التي استصلحها أبو أيوب لابنه ، والمنصور يشتهي هناك سمكا شهيا ، فيعده له أبو أيوب عند عجائز الأهواز اللائي يحسن صنعة السمك وتهيئته ، فيتقبل المنصور ذلك ، ويأذن له في صنعه ، ولكنه لا يلبث أن ينهض من المجلس ، ويدعو الربيع ليصب عليه الماء حتى يغسل وجهه ، فتحضر إذ ذاك سلال مليئة بألوان من الخبز ، وضروب من الرقاق ، وصنوف من السمك ، ولكن الربيع صديق أبي أيوب ، يجد الفرصة سانحة للتكلم مع المنصور في شأن أبي أيوب بكلام فيه حيطة له ، وسعى على أبي أيوب ، فيقول « يا أمير المؤمنين : تعلم أني غير مستبطيء لسليمان ، وإنه مني لعلى صداقة ومودة ، ولكن امير المؤمنين آثر عندي من نفسي ، وقد علم سليمان ما يريده أمير المؤمنين به ، فهل يأمن امير المؤمنين أن يكون قد دس له في هذا الطعام شيئا ؟ » وجد هذا الكلام موضعا في نفس المنصور ، فوقر فيها وتمكن . وافى صدرا رحبا يهش له ويقبله ، وانطلق لسان الخليفة يشكره وإطلاعه على امر في نفسه ما كان يعلمه أحد من قبل ، فقال : « بارك الله عليك يا ربيع ، وأحسن جزاءك ، إنه ما دخل رأسي مما يأتي من عند سليمان من الألطاف شيء منذ كذا وكذا من الدهر ، فلا يسمعن منك هذا بعد » . فالخليفة يقبل نصيحة الربيع بشكره ، ويطلعه على ما في نفسه من ناحية أبي أيوب ، ثم يدعو بطعام آخر غير الطعام الذي أعده أبو أيوب .

***

وما كان ذلك فقط من الربيع فإنه كان لا يفتر عن حمل كل ما يصل إليه من الأخبار عن أبي أيوب ليوغر صدر المنصور — فهو الذي كان يحمل كلام أبان ابن صدقة كاتب أبي أيوب ، فإن كان يأتي الربيع ، وينقل إليه أخبار أبي أيوب الذي كان يقضي معه نهاره كله ، ولم يفد أبا أيوب حرصه الشديد ، إذ كان يترك

غلمانه يصحبون أبان عند انصرافه حتى يصل إلى داره ، ولكن أبان كان يخرج إلى الربيع بعد أن يعود الغلمان إلى سيدهم ، ويبلغه مايريد — أما الربيع فإنه كان يوصل هذه الأخبار إلى المنصور .فيعجب المنصور ، ويقول : من أين هذا ؟ فيقول : من أبان بن صدقة . فلما علم أبو أيوب بذلك . عاتب أبان ، لجرؤ هذا عليه ، وأعلمه أنه فعل ماوصل إليه ، فندم أبو أيوب ، وعض على بنانه ، وقال : فعلتها!!! ، اخرج فلا تقربنى، فخرج ولكن بعد أن آذاه وأذاع سره .

٭٭٭

وكان أبو أيوب لا يتورع أن يشى عند الخليفة بكل من يتصل به . ومن هؤلاء أبو دلامة الشاعر المشهور ، وشاعر المنصور المختص به والذى كان يصله ، ويستطيب مجالسته ، ومنادمته ، ونوادره . حتى كان لايبخل عليه كما يبخل على غيره من الشعراء ، وكان يتجاوز عن هفواته للطف محله عنده .

وكان أبو أيوب يشنؤه ، فأراد أن يفسد مابينه وبين المنصور ، فأتاه من ناحية الدين ، لأن أبا دلامة كان « فاسد الدين ردىء المذهب ، مرتكبا للمحارم ، مضيعا للفروض ، مجاهرا بذلك » لذلك لم يتعفف أبو أيوب عن الوشاية به ، فهو يدخل على أبى جعفر ، ويقول له : أن أبادلامة منعكف على الخمر ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك ، لأجرت فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقطعه عنهم ، يسمع ذلك المنصور ، فيغضب من شاعره المختص به ، والمختص بعطاياه وجوائزه ، فلا يكاد يراه حتى ينهره على مجونه ، ولا يجدى عنده استكانته وتضرعه وتنصله مما نسب إليه ، لأنه شارف باب قبره ، فيحذره أو تفوته صلاة الظهر والعصر فى مسجده ، وإلا فإنه يحسن أدبه ، ويطيل حبسه ، فلم يجد أبو دلامة مناصا من لزوم المسجد ، فثقل ذلك عليه فكتب هذا شعرا ودفعه إلى المهدى :فأوصل هذا إلى أبيه ، فلما قرأه أعجبته فكاهته ومرحه ، فأعفاه من الصلاة معه

وأحلفه أن يصلي الأوقات كلها فى مسجد قبيلته، ومما قاله فى القصيدة التى رفعها إليه:

ألم تعلما أن الخليفة لزنى بمسجده والقصر، مالى وللقصر!
أصلى به الأولى جميعا وعصرها فويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكره فى غير مسجدى فالى فى الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومى مساجد جمة ولم ينشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلفنى من بعد ماشبت خطة يحط بها عنى الثقيل من الوزر
وما ضره والله يغفر ذنبه لو ان ذنوب العالمين على ظهرى

مهذب الأغانى حـ ٩ ص ٢٤ .

فهذا أبو أيوب غلب عليه طبعه، فوشى بأبى دلامة، وهو يعلم أن له عند المنصور منزلة خاصة، لا يتمتع بها شاعر غيره، ولكنه يخرج من ذلك بالخسران المبين، فإنه ان افلح فى إغضاب المنصور على أبى دلامه أياماً، فإن أبا دلامة لم يلبث أن عاد إلى منزلته عند المنصور، وساء رأيه فى أبى أيوب، حتى كان من الساعين عليه.

٭٭٭

وذلك عمرو بن عبيد، العالم الواعظ، شيخ المعتزلة ومفتيها، يعظ المنصور والمنصور يجله ويحترمه ويقدمه، فبينما هو خارج من حضرته مرة، قابله أبو أيوب فقال له: ياأبا عثمان — أظنك قد ردعت هذا الرجل، فقال: نعم، وقد حضضته على اهل الكوفة واهل البصرة، فإن استطعت أن تعينه بخير فافعل، وكفى بأمة شراً أن تكون أنت المدبر لأمورها.

فذلك عمرو بن عبيد، ومقامه من المنصور مقامه، ومنزلته من العامة والخاصة منزلته، يرى أن الأمة يكفيها شراً أن يكون أبو أيوب المورياني هو الذى يتولى أمورها

وكانت زلات أبي أيوب لا تقف عند حد . وقد يكون من أبشعها وأفظعها أنه كان للمنصور فتى من زوجة أهوازية، تزوجها حين كان مختفيا في الأهواز، وكان قد تركه مع أمه، ثم عاد إليه، وتعرف عليه بعد أن ولي الخلافة، وأسلمه إلى أبي أيوب، وأمره أن يقوم على تربيته وخدمته، كما لو قام بخدمة ولده وتربيته، ثم أمر الربيع أن يدخله عليه من غير إذن، وأمر الولد أن يبكر إليه كل يوم فضمه المورياني إليه . وخصص له دارا، وأوسع له من كل شيء، فعاش في نعيم مقيم وصار يغدو كل يوم إلى الخليفة ويروح عنه مسرورا مغتبطا حتى خص به جدا؛ وكان الولد عاقلا ذكيا لبيبا كاملا، عرف ذلك منه أبوه، فكان يخلو معه، ويقفه على شيء أو أشياء مما عنده؛ وكان المورياني يحاول أن يقف على شيء مما يدور بين الفتى وبين أبيه، فكان الفتى يضن عليه بذلك، ولا يظهره على شيء أبدا . فيقول له : إن أمير المؤمنين لا يكتمني شيئا، فيقول الفتى : « فما حاجتك إلى هذا عندي إذن ؟ » .

أصر الفتى على ألا يبوح بشيء، وألح المورياني في أن يعرف شيئا، فلم يظفر، فاستوحش منه، وثقل عليه مكانه، وأبغضه فدس له سما في طعام أكله فمات !!، وأخبر المنصور أن ابنه مات فجأة . فلما انصرف قال المنصور: قتلني الله إن لم أقتلك به .

***

أحس أبو أيوب أن زلاته كثرت، وأن مركزه عند الخليفة أصبح مزعزعا، وأنه قد لا يفلت منه، فامتلأ قلبه رعبا منه، وأصبح يذعر لكل شيء، فلا يتهنأ براحة، ولا يتلذذ بطعام ولا شراب، ولا يطمئن في نوم، ولا يطيب له مجلس أنس، ولا يعتز بسلطان ولا يستقر على حال — فذلك الذي طار في الآفاق ذكره، حتى أصبح الناس يتجرون في اسمه، ويتيمنون به، فيزرعون باسمه مزارعهم، ليرهبهم الناس، فلا يعتدون عليهم، ثم يقسمون الغلات بينهم

وبينه — ذلك الذى بلغ شأنه مابلغ ، يأتيه يوما رسول أبى جعفر وهو فى مجلسه ، فامتقع لونه ، وتغير ومضى إليه ، فعجب أصحابه ، وعجبوا من ذلك فلما عاد إليهم سالما عرف أنهم همسوا بما خامره من اضطراب وتغير حينما أتاه رسول الخليفة ، فحدثهم فى ذلك ، وضرب لهم مثلا يجرى على ألسنة العامة وهو « أن البازى قال للديك يوما : ماشىء أقل وفاء منك ، لأن أهلك أخذوك فى بيضة ، فحضنوك وخرجت على أيديهم ، وأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت ، جعلت لايدنو واحد منهم إلا طرت يمنة ويسرة ، وصحت وصوت ؛ وأنا أخذت من الجبال كبيرا ، فعلمونى وألفونى ، ثم يخلون عنى ، فآخذ صيدى وأجىء إلى صاحبى . فقال له الديك : لو رأيت فى سفافيدهم من البزاة مثل الذى رأيت فيها من الديكة ، كنت شرا منى » .

وبعد أن ضرب هذا المثل قال لجلسائه . ولكنكم لو كنتم تعلمون ما أعلمه، لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكنى .

ولو سألت نفسك ماالذى كان يعلمه أبو أيوب من شأنه عند المنصور ؟ . إن أخطأنى الظن ، فلن يخطئنى أن من هذا الذى يعلمه : تلك الأخبار التى توالت إلى المنصور من الربيع وغير الربيع ، فوقر فى نفسه منها أشياء وأشياء لا يمكن أن يغفرها له ، فهو يتوقع الشر فى كل وقت ، وجعل المنصور يتحرج منه ، ويحتاط فى معاملته — فلا يطعم طعامه ، ولا يأتنس به فى مجلسه، ولا يدعوه لحضور سمره، ولا يطلعه على المهم من أمور دولته — فإنه خرج إلى قنسرين ليقيم فيها ، ويرسل الأمداد منها إلى أفريقية حينما خرج عليه أهلها ولكنه كتم تدبيره ، وأظهر أنه مسافر إلى ناحية لم يظهرها ولم يبينها ، وأمر بالاستعداد، ولم يعرف أحد القصد . فلما تذاكر ذلك أبو أيوب وبعض رفاقه ، رجموا بالظنون ، فلم يصيبوا شيئا ، ومع ذلك لم يقدم على مسألته أبو أيوب ، ولم يجرؤ على تعرف ذلك منه .

اجتمعت الأسباب لدى المنصور على ضرورة نكبة أبي أيوب — فقد علم عنه علم اليقين أنه يرتشي، وأنه شره في جمع المال، وأنه ولى أهله وخاصته الأعمال، وأنه دلس عليه في ضيعة الأهواز، وأنه وشى عنده بأبي دلامة شاعره المختص به، وأنه ساءت فيه شهادة عمرو بن عبيد، وأنه قتل ابنه الأهوازى — كل هذه الأسباب مجتمعة حطت منزلته عند المنصور، ولم يشفع فيه ما كان متصفا به من ظرف ولباقة وكياسة وحسن تأت للأمور، فصمم على أن ينكبه وينكب أهله.

لاتقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

ومن أكثر شهامة من المنصور، واحزم منه، وأكثر تحينا للفرص، ولاسيما في المهم من الأمور؟ فإنه حينما أراد قتله، قال له: «ياخوزى أكنت آمنا من أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك. فيكون جزاؤك في العاجل إراقة دمك، واستباحة نقمتك، وفي الآجل حلول دار الفاسقين. ومأوى الظالمين الناكثين؟!!». فقال: «إن للتهم فلتات ترجع بالندم، ولك من رسول الله ﷺ عدل السياسة، وشرف القرابة. فأقلنى» . قال المنصور: «لايسعنى مع عظيم جرمك، وجليل ذنبك، إقالتك ولا العفو عنك: لأنك اقترفت الموبق، ومالا يسع معه عفو».

وصمم المنصور على قتله وقتل جميع من يتصلون به من إخوة وبنى إخوة وحدث في أثناء الكلام عنه أن ملكا من الملوك كان يساير وزيرا له، فضربت دابة الوزير رجل الملك، فغضب وأمر بقطع رجل الوزير، فقطعت ثم ندم فأمر بمعالجته حتى برىء، ثم قال الملك في نفسه: هذا لا يحبنى أبدا وقد قطعت رجله، والأمثل به أن يتخلص منه بقتله، وبعد أن ضرب هذا المثل قال: وأهل هذا الوزير لايحبوننى أبدا ولابد من قتلهم جميعا.

ولما هم بنكبته حبسه وحبس أخاه وبنى أخيه، ووقع به ما كان ينتظره

بعد أن علا حتى استوى على الذروة ، فكان لابد أن يهوى هويا سريعا يعفى عليه .

ـ ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

وتلك سنة الله فى خلقه — هذا صاعد ، وذلك هابط ،وهذا يبنى ،وغيره يهدم . فإذا انتهى الصاعد إلى الغاية ، أو أشرف عليها كان لابد أن يهبط من حيث صعد ، وإذا بنى البانى حتى انتهى من بنيته أو كاد أن ينتهى منها — كان مصيرها الهدم حتما .

إذا تم شىء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

وهذا أبو أيوب ، بلغ ما بلغ فى دولة المنصور حتى كان هو المقرب، والمقدم،والرئيس،والوزير،والآمر،والناهى،والمستشار،والمشير،وصاحب الأمر النافذ والكلمة المسموعة ، وذا المهابة والجلال ، وأحس هو أن نعمته قدتمت وأنها على وشك أن تزول . فإن رجلا ممن كانوا يتجرون باسمه ، حضر يوما ودخل عليه وهو لا يعرفه ، فجلس إلى أن خف الناس ، ثم دنا منه وأخبره أنه الأهوازى الذى زاره منذ عام . واستأذنه فى أن يعيره اسمه ليجعله على ضيعته ، لأن العمال يحملون عليه فيها ، ويتناهبون غلتها ولا يتركون له شيئا ، وإن هو أعاره اسمه — تهيبوه ولم يدنوا من المزرعة . وقبل أن يحمل إليه فى كل سنة مئة الف درهم فى مقابل ذلك ، فوهب له اسمه يفعل به ما بدا له ،فلما حال الحول ، وأغلت الضيعة ، حمل إليه المال مقابل انتفاعه باسمه.

فلما سمع أبو أيوب القصة أخذ المال ووضعه بين يديه .وانصرف الرجل شاكرا داعيا ، أما أبو أيوب فانه استعبر . واندفع يبكى ويجهش بالبكاء ، وينتفض انتفاض العصفور بلله القطر ،فتعجب الحاضرون من أهله ، وقالوا له : « ما رأينا موضع سرور وفرح عقبه بكاء وحزن غير هذا » فقال لهم : « ويحكم ، إن شيئا بلغ هذا من إقباله كيف يكون إدباره ؟ »

فهو فى هذا يحس سوء العاقبة .ونحن وإن كنا نعتقد أنه لو أحسن القيام على ماوليه من الأمور ، لطال نعيمه ، وبقيت معه سعادته ، ولكنه أحس أنه ارتكب أمورا ما كان يجدر بمثله أن يرتكبها وأن من يفعل ذلك لابد أن يفتضح أمره ، فكان النتيجة الطبيعية لمثل هذا أن يعجل الله به ولولا أن الله عجل به لعجل هو بدولة ناشئة كانت فى مهدها ، وقضى عليها ، ومن العدل أن الغادر يغدر به ، وأن الخائن يؤخذ بخيانته ، ولو ترك مثل هذا على وجه الأرض ، يعيش كما يعيش الناس ، وينعم بما ينعمون — لكان حربا على سيده يتآمر عليه ويسىء إليه ، ويكون مصدر فتن وقلاقل وثورات ويجد عقولا كثيرة مهيأة لمعونته والأخذ بيده ويدفع أصحابها ويقف من ورائهم يحركهم ويدبر لهم ، ويجد ذلك فى الطالبيين أو الأمويين ، أو بعض العباسيين ، أو فيهم جميعا ، فكان من الخير لسلامة الدولة وسلامة صاحبها ، أن يحول بينه وبين الناس ، فلا يقول لهم ، ولا يقال له ، ولا يسعى عليه وإن لم يتمكن صاحب السلطان من تلك الحيلولة كان عليه أن يحرمه الحياة محافظة على سلطانه وإبقاء على دولته . والأخذ بالحزم فى مثل تلك الأمور أجدى على الناس جميعا،لا فرق فى ذلك بين الراعى ورعيته ، وإن تحرك له أحد من قومه ، أو حاول أن يشغب، ضرب على يده ضربة لا يقوم منها . وليس فى ذلك قسوة يتهم بها صاحب السلطان لأن الأمور لا تستقيم إذا ترك مثل هؤلاء يعبثون. وعامة الناس لا يعرفون مواطن الخير،ولا يميزونها من مواطن الشر ، فليتركوا الأمور تجرى بيد صاحبها ، والله يجرى على يديه الخير ما دام ذلك رائده .

وإن « على الملك ألا يجاوز بأهل الجرائم عقوبة جرائمهم فإن لكل ذنب عقوبة — إما فى الشريعة والنواميس ، وإما فى الاجماع والإصطلاح ،فمن ترك العقوبة فى موضعها ، فبالحرى إن يعاقب من لا ذنب له ، وليس بين ترك العقوبة (إذا وجبت) وعقوبة من لا ذنب له — فرق . وإنما وضع الله

الملوك بهذه المواضع الرفيعة ، ليقوموا كل ميل ، ويدعموا كل إقامة [١] وقد يختلف فى تقدير العقوبة ، وفى تقدير جزائها . أما ومرتكب الجريمة رأس كبير يخشى منه إذا ترك ، ويخشى منه إذا كان حيا ، فلتكن سلامة الدولة فى التخلص منه لأنه أحسن إليه فكفر بالإحسان وأنعم عليه فلم يراع حرمة الإنعام والمنصور كان لا يمن على أحد أحسن إليه مادامت له طاعة، وبقيت فيه ولاية فإذا خرج من الطاعة إلى المعصية وعدل عن النصيحة إلى المكارهة وأظهر الولاء وأبطن غيره ذكره « بلاءه عنده وقلة شكره ووفائه » ، ثم يوقع به ، ولو أن أحداً غير أبى أيوب فعل مافعل ، لجاز أن يشنع فيه شىء من عمله ، أو حسن تأتيه للأمور ، أو أن يقيض الله له من يرحمه ، ويذوب له قلبه حسرة عليه وشفقة به .

وقد يرتكب الذنب الواحد أكثر من شخص واحد . وعند مؤاخذتهم بما ارتكبوا من ذنب تجد كلا منهم توقع عليه عقوبة تختلف عن التى توقع على غيره ، وذلك يكون تبعا لاختلاف أقدار الناس وأنواع أعمالهم . وإن خليفة مثل المنصور ، كان « أكثر الأمور عنده معرفة أحوال الناس ، حتى عرف الولى من العدو ، والمداجى من المسالم ، فساس الرعية ولبسها وهو من معرفتها على مثل وضح النهار » — لحرى أن يأخذ المذنب بما يستحق ، وقد استحق أبو أيوب عنده القتل ، وهو لم يقدم على ذلك إلا بعد أن فحص عن أسراره ودقيق أخباره ، حتى لكان يتعرف مبيته ومقيله وحديثه مع خاصته ، وما كان المنصور ليغفر لأبى أيوب ، وهو الذى يرى أن « من حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، فان الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن فى ملكه ، وصفة الآخر أن يذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يخونه فى حرمه » [٢].

---

(١) التاج ص ١٦

(٢) التاج ص ٩٤

فإذا كان عبد الله بن رفاعة يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق . وإذا كان عبد الله بن مروان يصرف كاتبه عن عمله ، لأنه قبل الهدية ، ويقول له : « إن كنت قبلت هدية لاتنوى مكافأة المهدى لها — إنك لئيم دنىء ، وإن كنت قبلتها تستكفى رجلا لم تكن تستكفيه لولاها — إنك لخائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدى لها — إنك لئيم دنىء ، وإن كنت قبلتها تستكفيه لولاها — إنك لخائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدى عن هديته ، وألا تخون أمانته ، ولا تثلم له دينا — فلقد قبلت مابسط عليك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، وليس منى من أتى أمرا لم يخل فيه من لوم أو دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع . ولم يشفع عنده مااعتذر به الكاتب من أن الأمور مستقيمة ، والأموال دارّة ، والعمال محمودون ، والخراج موفر ، وذلك مايهم الحاكم من كاتبه .

إذا كان ذلك كذلك ، فما ظنك بالمنصور ، وقد تيقن أن أبا أيوب اختانه ، واعتدى على الأمانة التى حملها ، ولم يراع حرمة الخلافة ، ولا حرمة الولاء ، وحلب الدر حتى انقطع على يديه أو كاد ؟؟

٭٭٭

حبس المنصور أبا أيوب وأهله جميعا ، وطالبهم بالأموال ، وأثقل عليهم وعذبهم حتى نال منهم . ومات أبو أيوب سنة ١٥٤ هـ ، وقتل بنو أخيه جميعا . وفيه يقول الشاعر :

فاتق الله وارض بالقصد حظا   وتباعد عن موبقات الذنوب
قد رأيت الذى أدالت ونالت   وقعة الدهر من أبى أيوب

محمد أحمد برانق

فهرست

العدد الأول من السنة الثامنة

صفحة